بسم الله الرحمن الرحيم

# سورة الأعراف

يقول الله تعالىٰ: ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾

هذه هي الحروف المقطعة في أوائل السور.

وقد تكلم العلماء في تحديد معناها بأقوال عديدة، من أبرزها: أنها حروف من جنس ما تحدَّث به العرب، جاءت هكذا للفت أنظار المشركين، وجذب اهتمامهم لسماع القرآن الكريم، الذي كانوا يُعرِضون عنه، بل كانوا يقولون لبعضهم البعض: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ولكنَّ القرآن غلبهم، فأسمعهم، و ألزمهم، وأسقط حُجَّتهم بهذه الحروف.

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٢﴾

**والمعنىٰ:** هذا القرآن ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ من ربك يا محمد؛ لتبليغه، ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدۡرِكَ حَرَجٞ مِّنۡهُ﴾ أي: ضيق بسبب ما ينالك من أذىٰ قومك، وتكذيبهم لك، وعنادهم معك، وقد أنزل إليك هذا القرآن: ﴿لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ الكافرين، وتُخوِّفهم من عذاب الله تعالىٰ، ليكون ﴿ذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تذكِّرهم به.

ثم ينتقل الخطاب الإلٰهي إلىٰ الكافرين، فيقول رب العزة:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣﴾

**والمعنىٰ:** ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ علىٰ لسان نبيكم، من القرآن، والسنة، والتزموا بهما، واهتدوا بهديهما، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ غير الله تعالىٰ،

تتَّخذونهم لكم أولياء ومعبودات، يضلُّونكم عن كتاب الله وسُنَّة رسوله، إلىٰ الأهواء والبدع والضلالات.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ حيث تتركون دين الله، وتتبعون غيره، بسبب تذكُّركم القليل، وإعمال فكركم الكثير.

**ولهذا:** فالذكُّر الكثير، والتذكر الكثير: هما طريق الهداية، والنجاة من الانحراف.

ثم يهدّد ربنا سبحانه وتعالىٰ من مخالفته بضرب المثل بمن خالف قبلاً؛ فأهلكه الله، حيث يقول عز وجل:

﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾﴾

**يعني:** ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ﴾ من قبلكم عاند أهلها، فلم يؤمنوا، ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ أردنا أهلاكها؛ عقاباً لأهلها، ﴿فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلًا كما حدث لقوم لوط عليه السلام ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في النهار، وقت القيلولة والاستراحة في الظهيرة، كما حدث لقوم شعيب عليه السلام.

فماذا فعلوا ساعتها؟ دعوا ربهم واستغاثوا. وماذا كان دعاؤهم؟

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾

**يعني:** حينما ﴿جَاءَهُم بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا، وإهلاكنا لهم ولقراهم دعوا ربهم، واستغاثوا، وما كان دعواهم واستغاثتهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا﴾ تحسُّرًا وندامة ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

ولم يستطيعوا دفع العذاب عن أنفسهم ولم ينفعهم ـ في الوقت ذاته ـ الندم، وأنتم ـ أيها الكفار جميعًا ـ كذلك. وهذا عن العذاب في الدنيا. فماذا عن العذاب في الآخرة؟

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

**يعني:** سيكون السؤال والحساب يوم القيامة، حيث نسأل الأمم: عما أجابوا به رسلهم، كما نسأل الرسل: عما أجابتهم به أممهم. وأيضًا:

﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾﴾

**يعني:** ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم﴾ أي: فلتخبرن الرسل عليهم السلام والأمم، بما كان من كل منهم ﴿بِعِلْمٍ﴾ ونحن عالمون بأحوالهم الظاهرة والباطنة، ومواقفهم كلها.

ولكن كيف يكون الجزاء؟

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾

**والمعنى:** يكون الجزاء يوم القيامة بوزن الأعمال، والأقوال والمواقف.

﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ أي: يوم القيامة يكون الوزن حينما يسأل المولى الرسل والأمم: بالعدل.

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالحسنات، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الفائزون برضوان الله.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بسبب السيئات، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ وضيَّعوها، وصيَّروها إلى النار، والسبب ﴿بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي: يظلمون أنفسهم بعدم الإيمان بالله، والاعتبار بآياته.

وبعد أن أمر الله الكفار باتباع ما أنزل الله، ونهاهم عن اتباع غيره، وخوَّفهم بما حدث للأمم من قبلهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ذكَّرهم بنعمه التي تقتضي منهم الإيمان بالله تعالى، والشكر عليها، حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾

**يعني:** ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يا بني آدم، وملَّكناكم وأقدرناكم على التصرُّف فيها، ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ من المطعم والمشرب، وما تكون به الحياة والمعيشة الهنيَّة، ومع ذلك فأنتم: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله على هذا التمكين لكم في الأرض، والجعل لكم من ألوان المعايش، حيث لا تؤمنون به، ولا تتبعون ما أنزل على رسوله ﷺ.

ثم يذكِّر ربنا بنعمة عظيمة على آدم عليه السلام، لا تزال سارية على ذريته إلى يوم القيامة، حيث يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أباكُم آدم من العدم، حين كان طينًا، فصار بشرًا، ثمّ ﴿صَوَّرْنَاكُم﴾ أي: صَوَّرنا أباكُم آدم، حين كان بشرًا، بشق حواسه، من السمع والبصر، وغير ذلك، ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ سجود تحية، ﴿فَسَجَدُوٓا۟﴾ طاعة لأمر ربهم، ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ أبا الجن، الذي كان بين الملائكة ﴿لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

حيث تأبىٰ علىٰ أمر الله تعالىٰ، ولم يسجد لآدم:

﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ بالسجود، وأنت بين الملائكة؟ ﴿قَالَ﴾ إبليس جواباً لسؤال ربه: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ولذلك لم أسجد له، ولكن ما وجه هذه الخيرية التي يدَّعيها إبليس؟ قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ والنار خير من الطين، فأنا خير منه.

وقد أخطأ إبليس في ذلك عدة أخطاء حيث: خالف الأمر، وفارق الجماعة، واستكبر علىٰ أمر الله، وحقَّر آدم عليه السلام.

وكلها: بلايا تؤدِّي بصاحبها إلىٰ شر المهالك. ولذلك:

﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ لإبليس اللعين ﴿فَٱهْبِطْ﴾ يعني: انزل هابطًا مطرودًا ﴿مِنْهَا﴾ أي: الجنة، وقيل السماوات؛ لأنك استكبرت، ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾ فما ينبغي لك ﴿أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ حيث إنها مكان الطائعين المتواضعين، وأنت لست منهم، ﴿فَٱخْرُجْ﴾ منها، ومن بين أهلها ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ الذليلين الحقيرين، يذمك كل إنسان، ويلعنك كل لسان.

ولمَّا كان أهل الجنة لا يموتون، ومَن ليسوا فيها من أهل الدنيا يموتون: خاف إبليس أن يموت، بل أن يذوق طعم الموت!! لذلك: سأل ربه أن لا يموت، حيث:

﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ إبليس لربه ﴿أَنظِرْنِيٓ﴾ أخرني، ولا تُمتني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: لا تُمتني نهائيًا؛ لأنه لا موت بعد البعث. ولذلك، وتفويتًا لقصده ورفضًا لطلبه:

﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ له ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي: المؤخَّرين، ولكن ليس ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤]، بل ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨] أي: وقت لنفخة الأولىٰ، التي تميت جميع الخلائق. وهنا:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ إبليس اللعين، لمَّا رفض الله طلبه الخلود: أحب أن ينتقم أخذًا بثأره، فيما يتصوَّر، ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب وقوعي في الغي والضلال، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ يعني: لبني آدم، أي: أحول بينهم وبين ﴿صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: الموصل إليك، وهو الإسلام.

﴿ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ﴾ يعني: من كل جهة، فأمنعهم من سلوك الطريق المستقيم، وهو الإسلام.

ويلاحظ: أنه لم يذكر جهتين الجهة السفلىٰ: تكبُّرًا منه، والجهة العليا: حيث لا يستطيعها ـ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما ـ لئلا يحول بين العبد ورحمة ربه.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ أي: مؤمنين، بسبب إغرائه لهم.

وبعد هذا الحوار:

﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ الله تعالى آمرًا له: ﴿ٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، ﴿مَذْءُومًا﴾ معيبًا ﴿مَّدْحُورًا﴾ مطرودًا من رحمة الله تعالىٰ؛ لتفسد في الأرض، وتُغوي أتباعك من الضالين.

وأقسم ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ﴾ أي: منك وذريتك وممن تبعك من الناس ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أعذبه فيها.

وبعد ذلك وجَّه الله الخطاب لآدم عليه السلام قائلًا:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

**يعني:** ﴿وَ﴾ بعد طرد إبليس من الجنة قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ فهي سكنكما، ومقر إقامتكما، ﴿فَكُلَا﴾ منها، ومن ثمارها ﴿مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ الأكل فيه، ﴿وَ﴾ لكن ﴿لَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: بالأكل منها، ولو فعلتما ذلك، وأكلتما منها ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فتصيرا بمخالفتكما للأمر الإلٰهي من الظالمين لأنفسكما. ثم ماذا حدث لهما؟

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾

**يعني:** بعد النهي الإلٰهي لآدم وزوجه عن الأكل من الشجرة، التي حدَّدها لهما رب العزة، تدخَّل الشيطان ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: إبليس بكلام خفي، مكدر، لماذا؟ ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا﴾ أي: ليكشف لهما ما اختفىٰ واستتر عنهما ﴿مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ يعني: عوراتهما، وذلك: ليوقعهما في المعصية؛ فيخرجا من الجنة، كما خرج منها.

﴿وَقَالَ﴾ لهما ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ﴾ الأكل من ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ﴾ بقصد أن لا ﴿تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ تعلمان الخير والشر ﴿أَوْ﴾ لا ﴿تَكُونَا﴾ في الجنة ﴿مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ الذين لا يموتون أبدًا. ثم أكَّد لهما صدق كلامه:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾

**يعني:** أقسم لهما بالله، وقال: ﴿إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الذين يدلانكما علىٰ النفع والخير لكما. وهو كاذب في هذه النصيحة.

ولأن آدم عليه السلام كان يظن أن لا أحد يحلف بالله كاذبًا: فصدَّقه، واغترَّ به، ولذلك يقول رب العزة:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

**والمعنى:** ﴿فَدَلَّىٰهُمَا﴾ أي: فخدعهما ﴿بِغُرُورٍ ۚ﴾ أي: بزخرف من القول الباطل.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: أكلا منها أكلًا خفيفًا لمعرفة الطعم: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ أي: ظهر لكل واحد منهما عورته وعورة الآخر، ولذلك ﴿طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا﴾ أي: أخذا يلصقان على عورتيهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ ليسترا به عورتيهما، ﴿وَ﴾ هنا ﴿نَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ﴾ قائلًا: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا تطيعانه، وهذا: عتاب من الله لهما، وتنبيه على الخطأ منهما. ولذلك:

﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَا﴾ أي: آدم وحواء ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ بمعصيتك ومخالفة أمرك وتعاليمك، ومطاوعة عدونا وعدوك، ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لرحمتك ورضوانك، وكان في هذا: توبتهما من هذه المعصية. وبعد ذلك:

﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ الله تعالى لآدم وحواء، وما اشتملا عليه من ذريتهما ﴿ٱهْبِطُوا۟﴾ أي: من الجنة، أو من السماء، ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ﴾ أي: تعادون إبليس ويعاديكم، ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ مكان استقرار وإقامة، عليها تعيشون، وفيها تدفنون، ﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: وتمتُّع بعيش إلى حين تنقضي آجالكم بالموت.

ثم وضح ذلك حيث:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ﴾ أي: في الأرض وعليها حياتكم، وموتكم، ﴿وَمِنْهَا﴾ أي: من الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ يوم البعث للثواب والعقاب، علىٰ ما كان منكم.

ثم عرض قصة بداية الوجود الإنساني علىٰ الأرض.

وها نحن الآن ـ علىٰ الأرض ـ تجري علينا أحكام وقوانين جديدة تناسب هذا الوضع الجديد، ولذلك: يبدأ المولىٰ **بعدة نداءات** لبني آدم:

**النداء الأول:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾

وفي هذا النداء: يذكِّرهم بنعمة ستر عوراتهم، والمعنىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ لباسين: ﴿لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ﴾ ويغطيها ويسترها، ولباسًا يزيِّنكم ويجمِّلكم ويحسِّن مظهركم، هذا ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ الذي يقي عذاب الله، وهو طاعته: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ من كل لباس سواه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: إنزال اللباس نعمة من الله، آية ﴿مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الدالة علىٰ فضله ورحمته بعباده، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ فيعرفون عظيم إنعام الله، فيؤمنون.

**والنداء الثاني:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وفي هذا النداء: يحذِّرهم فيه من إبليس وذريته.

والمعنىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا يخدعنَّكم، ويضلَّنَّكم، ويغوينَّكم بالمعصية، فيبعدكم عن دخول الجنة، ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم﴾ آدم وحواء سابقًا ﴿مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ وهو ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ بخداعه لهما ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ عوراتهما.

يا بني آدم احذروه، وانتبهوا له، حيث ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ﴾ ذريته ﴿مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أنتم، وهم علىٰ صُوَرِهم الأصلية؛ للطافة أجسامهم، خاصة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

﴿ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أعوانًا لهم، كما مكنَّاهم من غوايتهم وإفسادهم. لذلك:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟﴾ أي: الذين لا يؤمنون ﴿فَٰحِشَةً﴾ بإغواء الشياطين لهم، ﴿قَالُوا۟﴾ متعلِّلين في فعلها ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ ذلك: أن العرب كانت تطوف بالبيت عرايا، ويقولون لا نطوف في ثوب عصينا الله فيه؛ ويقولون ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا﴾ بذلك. فكذَّبهم الله وأنزل هذه الآية.

ثم قال ربنا: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ التي تمارسونها، كما أنكم ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لأنكم لم تسمعوه، لا من الله تعالىٰ مشافهة، ولا من الأنبياء الذين تنكرون نبوَّتهم. ويا محمد:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾

**والمعنىٰ**: أن الله عز وجل بعد أن كذَّبهم فيما قالوه عنه، يأمر حبيبه ببيان الحقيقة الناصعة فيما يأمر به الله، حيث يقول: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم ﴿أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ وهو العدل، وليس بالفاحشة، كما تزعمون، وقل لهم كذلك أقبلوا علىٰ الله، ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ لله ﴿عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: أخلصوا له في سجودكم وطاعتكم، وصلاتكم، وقل لهم أيضًا: ﴿وَٱدْعُوهُ﴾ أي: اعبدوه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشرك والضلالات.

وقل لهم: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أي: خلقكم من العدم ﴿تَعُودُونَ﴾ إليه أحياء بالبعث يوم القيامة. وتكونون في هذه الحالة بعد البعث فريقين:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المسلمون، الطائعون.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ وهم الكافرون، ولكن لماذا حق عليهم الضلال ؟ ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ لهم، وأنصارًا وأعوانًا ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله تعالىٰ، وفي الوقت ذاته ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ وهذا عين الضلال، أن يخدع المرء نفسه، ويحسب أنه علىٰ صواب، وهو ليس بذلك.

**النداء الثالث:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

وفي هذا النداء: إعلان عن شريعة الله، بإباحة الزينة، وستر العورات، ولبس الجميل، والتمتُّع بالطيبات دون إسراف.

والمعنىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ للصلاة، أو الطواف.

وسبب نزول هذه الآية: أنَّ العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ـ الرجال بالنهار، والنساء بالليل ـ ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها.

وأيضًا: كان بعض العرب.. لا يأكلون في أيام حجِّهم إلَّا قليلًا، ولا يأكلون لحمًا ولا دسمًا ؛ يعظِّمون بذلك حَجَّهم، فنزل قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي: ما شئتم من الحلال ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ بتحريم الحلال، أو أكل الحرام، أو الإفراط في الطعام.

﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في كل شيء من أمورهم.

ثم قال الله لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يشرِّعون لأنفسهم غير ما أنزل الله، علىٰ سبيل الإنكار عليهم: ﴿مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ﴾ من اللباس بأنواعه، الذي يستر العورة، ويزيِّن الإنسان ؟ أي: هو حلال مباح، وكذلك: مَن حرَّم ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ الذي أنعم الله به علىٰ عباده؟ أي: هي حلال مباح.

﴿قُلْ﴾ أيضًا يا محمد ﴿هِيَ﴾ أي: زينة الله، والطيبات من الرزق، ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ غير خالصة لهم، أو خاصة بهم، حيث يشاركهم فيها الكفار، ولكنها ﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ لهم، لا يشاركهم فيها أحد.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ ليتميَّز الحلال من الحرام، ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يتدبرون، فينتفعون بها.

وبعد أن بيَّن ربنا الحلال، واستنكر علىٰ مَن حرَّمه، شرع سبحانه في تبيين الحرام فقال لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يشرِّعون لأنفسهم، غير ما أنزل الله، مبيِّنًا لهم ما حرَّمه الله، ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾ عليكم وعلىٰ الدنيا كلها ما يلي:

﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وهي: ما تفاحش وتزايد قبحه، كالزنا، وسائر الكبائر ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: سِرَّها وجهرها.

﴿وَٱلْإِثْمَ﴾ أي: المعصية المخالفة لأمر الله، بكل أنواعها، وأحجامها.

﴿وَٱلْبَغْيَ﴾ أي: علىٰ الناس وظلمهم ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: دون أن يكون دفاعًا عن النفس، أو ردًّا لعدوان.

﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: دليلًا وبرهانًا، وهذا: رد لقولهم وزعمهم أنهم أشركوا بأمر الله.

﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من تحريم ما لم يحرِّم، أو تحليل ما حرَّم، أو وصفه سبحانه بغير صفاته.

ثم يخوِّف ربنا هؤلاء المشركين وينذرهم؛ لعلهم يتعظون، فيقول الله عز وجل:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾

**والمعنىٰ**: اعتدلوا واستقيموا وآمنوا أيها الكفار؛ فإن لكم نهاية، ولكم عقاب.

حيث إنه بصفة عامة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: ميعاد معلوم، ونهاية محتومة، يكون فيها عذابهم علىٰ عنادهم، ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وحَلَّ عذابهم ﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ عنه ﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾، فآمنوا.

**النداء الرابع:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾﴾

وفي هذا النداء: بيان أنَّ مَن ترك المحرَّمات، وفِعل الطاعات لا يحزن أبدًا، ولا يخاف، وأمّا مَن كذَّب واستكبر، فإنه من أصحاب النار، وذلك: في حالة بعث الرسل عليهم السلام.

**والمعنى:** ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ عندما ﴿يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ يبلِّغونكم رسالة الله، ويدعونكم لتوحيده وعبادته، و ﴿يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أي: ويقرؤون عليكم كتبي، فإنكم تكونون بين فريقين:

**الفريق الأول:** ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ الشر منكم؛ خوفًا من الله، ﴿وَأَصۡلَحَ﴾ نفسه، والبلاد، وأسعد العباد؛ طاعة، هؤلاء: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيما هو آت ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على شيء فات.

وأما **الفريق الثاني** فيقول عنه المولى عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾

**يعني:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ﴾ منكم يا بني آدم ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: بكتبنا ووحينا ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ﴾ فلم يؤمنوا بها، ويذعنوا لها، ويعملوا بما فيها، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ الذين هم أهلها، وهي لهم و ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ باقون فيها أبدًا، لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها، وهؤلاء: هم الظالمون.

ثم يكون حديث المولى سبحانه عن أظلم الظالمين، وما يحدث لهم، فيقول عز وجل:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾

**والمعنى:** لا أحد ﴿أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ فقال على الله ما لم يَقُله، أو كذَّب قول الله، أو نسب الشريك أو الولد إليه، ﴿أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ﴾ يعني: كذب بالقرآن، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ﴾ أي: يصلهم ﴿نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ يعني: مما كتب وقسَّم لهم من: الأرزاق، والأعمار، والسعادة في الدنيا، أو الشقاء فيها إلى غير

ذلك، وهذا: مستمر ما داموا أحياء، إلىٰ أن يحين موتهم، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا﴾ أي: ملك الموت وأعوانه، ﴿يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ يقبضون أرواحهم، ﴿قَالُوٓاْ﴾ أي: الملائكة تقريعًا، وتوبيخًا، وتأنيبًا، ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليدفعوا عنكم آلام الموت، وشدة سكراته، والعذاب الآتي بعد؟ ﴿قَالُواْ﴾ مجيبين للملائكة: لا نراهم، لقد ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي: غابوا وتركونا في وقت الحاجة والشدة، وأدركوا أنهم كانوا يعبدون ما لا ينفع ولا يضر، ولذلك: ﴿شَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ واعترفوا عليها عند الموت، ﴿أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ يستحقون ما ينزل بهم من عذاب. وهنا:

﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ لهؤلاء الذين افتروا الكذب علىٰ الله، وجعلوا له شركاء: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِيٓ﴾ جملة ﴿أُمَمٖ﴾ من الجماعات والأحزاب، وأهل الملل، وأهل الضلالات، ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ مضت ﴿مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ودخلت ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾.

وكانوا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ﴾ في النار ﴿لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ﴾ في الضلال والانحراف، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي: تلاحقوا فيها، واجتمعوا في دركاتها كلهم، السابقون واللاحقون، والسادة منهم والأتباع، كان الحوار التالي: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ﴾ أي: قال الأتباع عن سادتهم ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ في الدنيا، حتىٰ صرنا هنا ﴿فَـَٔاتِهِمۡ﴾ يا ربنا، جزاءً لهم علىٰ إضلالهم لنا ﴿عَذَابٗا ضِعۡفٗا﴾ أي: مضاعفًا لا ينتهي ﴿مِّنَ﴾ عذاب ﴿ٱلنَّارِ﴾، ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ مجيبًا لهم ﴿لِكُلّٖ﴾ منكم ومنهم ﴿ضِعۡفٞ﴾ مضاعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ مقداره، لا أنتم ولا هم.

هل سكتت أولاهم لأخراهم في هذا الموقف، لا:

﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾

**يعني**: أجابت ﴿أُولَىٰهُمْ﴾ أي: السادة ﴿لِأُخْرَىٰهُمْ﴾ وهم التابعون مشافهة ومخاطبة، قائلة: ﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ لأنكم لم تكفروا ولم تضلوا بسببنا، بل باختباركم، ونحن وأنتم في العذاب سواء، وهنا يقول الله تعالىٰ للجميع:

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أنتم وهم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي: بكسبكم وعملكم وكفركم، عدلًا مِنَّا في معاملتكم.

وبعد بيان ما يكون بين الملائكة والكافرين عند الموت، وكذلك: بيان ما يكون بين الكافرين وبعضهم البعض يوم القيامة، يكون الإخبار عنهم بما يلي:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالىٰ مبيِّنًا جزاء: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ بآيات الله ﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ فلم يؤمنوا بها، وعاندوا حتىٰ ماتوا: وهذا الجزاء علىٰ النحو التالي:

**أولًا**: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: إذا ماتوا وصعدت الملائكة بأرواحهم إلىٰ السماء، لا تُفتَّح لهم، كما تُفتَّح لأرواح المؤمنين أبواب السماء، فيهبط بها الملك إلىٰ أسفل سافلين.

**ثانيًا**: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ أبدًا، وذلك التأبيد لقوله تعالىٰ ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ﴾ أي: يدخل ﴿الْجَمَلُ﴾ بحجمه الكبير وهو حيّ ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ ثقب الإبرة الضيق، وهذا لا يكون أبدًا، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين كذَّبوا بآيات الله، واستكبروا عنها، فلم يؤمنوا، وصاروا مجرمين في حق أنفسهم وغيرهم.

**ثالثًا**: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ يعني: فراش، ولهم فيها ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أغطية من نار جهنم كذلك، ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي﴾ بهذا الجزاء الفظيع ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر.

وبعد التفصيل السابق في أحوال المكذبين، وجزائهم، يكون الإخبار عن المؤمنين المصدِّقين، حيث يقول المَلِك العلَّام:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾

**يعني:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قدر طاقتهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

ومعنى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: لا نكلِّفها ما فيه مشقة وحرج، حتىٰ لا يفهم فاهم أن دخول الجنة متوقِّف علىٰ ما لا يمكن عمله.

هؤلاء يقول عنهم ربهم:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾

**والمعنىٰ:** أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات: دخلوا الجنة طاهرين، مطهّرين؛ حيث ﴿نَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد كان بينهم في الدنيا، ولم يتبقَّ بينهم إلَّا المحبة والتَّوادَّ والتعاطف، وهذا: من تمام سعادتهم في الجنة، التي ليس فيها إلَّا السلام الحسي والمعنوي، ولتتم لهم سعادة المنظر ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ﴾ أي: من تحت قصورهم التي يقيمون فيها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

وهؤلاء: قد ﴿قَالُواْ﴾ عند دخولهم الجنة، واستقرارهم في منازلهم وقصورهم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ العمل، الذي هذا ثوابه، كما اعترفوا بفضل الله عليهم، وإنعامه بهم، حيث قالوا كذلك: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: لولا هداية الله لنا: ما اهتدينا، وما صرنا إلىٰ ما نحن فيه من نعيم مقيم.

ثم قالوا كذلك: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا﴾ في الدنيا ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي أخبرونا به، ودعونا إليه؛ حيث حصل لنا ثوابه، ونَنْعم به الآن.

وبعد ذلك ﴿نُودُوٓاْ﴾ أي: نودي علىٰ أهل الجنة بهذا النداء: ﴿أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا﴾ التي كانت الرسل تعدكم بها في الدنيا ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ يعني: آلت إليكم، وصارت في ملككم بلا تعب ولا مشقة ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة.

ولأنه من تمام النعمة: أن ترىٰ عَدُوّ العقيدة الصحيحة في النار، وأن يراك في الجنة كان ما يلي:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

**والمعنىٰ**: أنه: بعد استقرار أهل الجنة في الجنة، واستقرار أهل النار في النار ﴿وَنَادَىٰٓ﴾ أي: يقول ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ يا ﴿أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ﴾ لقد ﴿وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا﴾ علىٰ ألسنة رسله من الثواب علىٰ الإيمان به، وطاعته، واتباع رسله ﴿حَقًّا﴾، ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ من العذاب علىٰ كفركم واستكباركم ﴿حَقًّا﴾؟ ﴿قَالُواْ نَعَمْ﴾ أي: قال أصحاب النار مجيبين أصحابَ الجنةِ نعم وجدنا ذلك ﴿حَقًّا﴾، وهنا وفي هذه اللحظة: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ مناد، يسمعه الجميع ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

وهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: دينه ﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: يريدون دين الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: منحرفة عن الحق والصواب، بتغييرها وتحريفها، ﴿وَهُم﴾ في الوقت ذاته ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: الدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

ويلاحظ: أنه قد اجتمع فيهم الصدّ عن سبيل الله، وإرادة الإفساد، والكفر باليوم الآخر.

وقد يظن ظان: أن الجميع مع بعضهم البعض، ولكن الحقيقة غير ذلك، حيث يقول المولىٰ مصوِّرًا هذا المشهد البديع:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْٓاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾

**يعني:** ﴿وَبَيْنَهُمَا﴾ أي: بين أصحاب الجنة، وأصحاب النار ﴿حِجَابٌ﴾ يعني: حاجز، يمنع وصول أثر كل من الجنة أو النار إلىٰ الأخرىٰ.

وهذا الحجاب هو: الأَعْرَافُ، الذي هو سور الجنة، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

**وهنا:** يظهر فريق ثالث غير أصحاب الجنة، وغير أصحاب النار، وهم أهل الأعراف، يقول تعالىٰ: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ﴾ يعني علىٰ هذا السور ﴿رِجَالٌ﴾ استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلم يدخلوا النار، ولم يدخلوا الجنة بعد، هؤلاء الرجال: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا﴾ من أهل الجنة وأهل النار ﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم: فأهل الجنة بيض الوجوه من النعيم، وأهل النار سود الوجوه من العذاب.

﴿وَنَادَوْا۟﴾ أي: نادىٰ أهل الأعراف ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ قائلين لهم: ﴿أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلمتم من الآفات ودخول جهنم، وحيِّيتم بتحية أهل الجنة.

ثم يخبر الله تعالىٰ عن أهل الأعراف هؤلاء بقوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ بعد ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها.

وبعد أن ينادي أصحاب الأعراف علىٰ أصحاب الجنة، ويسلِّمون عليهم، ماذا يحدث؟ يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ﴾ أي: إذا وقعت أنظار أصحاب الأعراف من غير قصد منهم ﴿تِلْقَآءَ﴾ جهة ﴿أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ ورأوا ما هم فيه، ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا﴾ في النار ﴿مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أصحاب النار.

وبعد أن طلبوا النجاة من النار لأنفسهم: توجَّهوا باللوم والتقريع لأهل النار:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾

**يعني:** ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا﴾ من أهل النار كانوا عظماء في الدنيا، فينادونهم، وهم علىٰ السور بأسمائهم، يا فلان، يا فلان، كيف يعرفونهم؟ ﴿يَعْرِفُونَهُم

﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم، التي يُعلَّمون بها في جهنم، فإذا عرفوهم، ونادوا عليهم ﴿قَالُوا﴾ لهم تقريعًا وتوبيخًا ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ يعني: لم يُغْن عنكم، ويدفع عنكم العذاب ما كنتم فيه من الحُرَّاس، أو الأصحاب، أو الأولاد، أوَ ما جمعتموه من الأقوال، وما وصلتم إليه من الجاه والمناصب، وكذلك: ما أغنىٰ عنكم، ودفع عنكم العذاب ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ به علىٰ الناس، وعلىٰ الخضوع للحق، والإيمان، لقد زال كل شيء، ولم يبقَ لكم إلَّا الذل والعار والنار.

ثم يقول أهل الأعراف لأصحاب النار، وهم يشيرون إلىٰ ضعفاء المسلمين ودعاتهم الذين ظُلموا، وتحمَّلوا الأذىٰ:

﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾﴾

**يعني:** ﴿أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ﴾ احتقرتموهم، وعذَّبتموهم، و﴿أَقْسَمْتُمْ﴾ علىٰ عدم دخولهم الجنة، وأن ﴿لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ منه؟

انظروا إليهم، وقد قيل لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بفضل الله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيما هو آت ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ علىٰ شيء فات.

وبعد أن عرف أصحاب الأعراف: أصحاب الجنة وأصحاب النار، وبعد أن نادوا علىٰ كل من الفريقين، وتحدثوا معهما، يصوِّر الله تعالىٰ بعض صرخات أهل النار، فيقول جل وعلا:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

**يعني:** ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم في شدة العذاب ﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ قائلين لهم: قد احترقنا، ونحن في شدة العطش ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ الذي تشربونه، وتتنعَّمون به ﴿أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فيقال لهم: أجيبوهم، ﴿قَالُوا﴾ أي: أهل الجنة لأهل النار ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا﴾ أي: منعهما ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

ثم يصف ربنا هؤلاء الكافرين بالصفات التي أدخلتهم النار، قائلًا:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾

**يعني:** هؤلاء الكافرون، هم ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فحرَّموا وحلَّلوا ما شاءوا بأهوائهم، أو اتخذوا اللهو واللعب ديناً لهم، ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾ بزخرفها، ومتاعها، وشغلتهم بالطمع في طول العمر، وحسن العيش، ونيل الشهوات، فنسوا الآخرة، ولم يؤمنوا بالله تعالىٰ.

لذلك: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ﴾ أي: نفعل بهم فعل الناسي بالمنسي، من عدم الاعتناء بهم، وتركهم في النار يُعذَّبون، ﴿كَمَا نَسُوا۟﴾ هم ﴿لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ أي: نسوا العمل للقاء يومهم هذا، وكذلك: نفعل بهم فعل الناسي لهم بتركهم في عذاب جهنم، بسبب ﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: ينكرون أن الآيات من عند الله. وبهذا: يتبيَّن أنَّ الذي أدخلهم النار حب الدنيا، ونسيان الآخرة، والتكذيب بآيات الله.

ثم يخبر تعالىٰ أنه أعذر إلىٰ هؤلاء الكفار، حيث أرسل إليهم الرسول ﷺ، ومعه القرآن، فيه تفصيل كل شيء، حيث يقول جلَّ وعلا:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

**يعني:** ما عذبنا هؤلاء الكافرين، وما نسيناهم في العذاب، إلَّا بعد أن ﴿جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ وهو القرآن، وقد ﴿فَصَّلْنَٰهُ﴾ وبيَّنا فيه ما قال الناظم:

**حلالٌ، حرامٌ، محكمٌ، متشابهٌ بشيرٌ، نذيرٌ، قصةٌ، عظةٌ، مَثَلْ**

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: عالمين بما فيه، مِمَّا يُصْلِح الخَلْق ويُسْعِدهم، كما أنه أي: القرآن ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فينتفعون بما فيه من الهدىٰ والرحمة، وغير ذلك.

فهل آمنوا؟ كلا. ولكن ماذا يمنعهم من الإيمان، بل ماذا ينتظرون؟

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

**يعني:** ﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينتظرون ﴿إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ﴾ أي: إلَّا عاقبة ما وعد الله فيه من البعث والنشور والحساب والعقاب، ومجازاة كل نفس بما كسبت، حيث إن هذه الأمور: هي التي تؤول إليها المواعيد المذكورة في القرآن الكريم، علىٰ كل حال:

﴿يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ وتحدث هذه الأشياء، كما وضَّح القرآن، ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ﴾ أي: أهملوا القرآن، وتركوا العمل به، بل أنكروا أنه من عند الله ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: وهم في الدنيا ﴿قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: يعترفون بذلك بعد مشاهدتهم ومعاينتهم للعذاب الذي أُخبِروا به، ولكن لا ينفعهم هذا الاعتراف والإقرار، ثم يقولون متسائلين: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ عند ربنا ﴿فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ أن يخفِّف عنا هذا العذاب، ﴿أَوْ﴾ هل ﴿نُرَدُّ﴾ إلىٰ الدنيا، مرة أخرىٰ ﴿فَنَعْمَلَ﴾ صالحًا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والتكذيب.

ولكن هل يفيدهم هذا التحسر والندم والتمني؟ كلا: ﴿قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ وأضاعوها ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ من الأكاذيب، ويعبدون من الأصنام.

ثم يكون النموذج علىٰ هذا الكتاب، الذي فصَّل الله فيه بعلم في آية، تذكِّر بالله وقدرته عز وجل، يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، والعمل بتشريعه: هو ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، ويلاحظ: أنه سبحانه لو شاء لخلقهُنَّ في لمحة؛ لأنه هو الذي يقول للشيء: كن، فيكون، ولكن لم يفعل ذلك: لتعليم خلقه التثبُّت، والتمهُّل والأناة في الأمور، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواءً يليق بكمال ذاته، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يغطِّي كلًّا منهما الآخر، بقدرته سبحانه وتعالىٰ، ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: يطلب كلٌّ منهما ـ الليل والنهار ـ ويجري وراء الآخر

بسرعة، وهو الذي خلق ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍ﴾ أي: مذللات، طائعات ﴿بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي: بقدرته.

﴿أَلَا لَهُ﴾ لا لغيره ﴿ٱلْخَلْقُ﴾ جميعاً ﴿وَٱلْأَمْرُ﴾ كله.

﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ تعاظم وتمجد وارتفع ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كلِّهم، أي: خالقهُم، وسيدُهم، ومربيهم.

وبعد أن عرَّفنا ربُّنا قدرتَه وعلمه، يرشدُنا إلىٰ حسنِ عبادته، فيقول جل جلاله:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ أي: اعبدوا ربكم ﴿تَضَرُّعًا﴾ في خشوع وتذلل ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًّا.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ المجاوزين لمَا أُمروا به، ونهوا عنه، في كل شيء.

كما يرشدنا إلىٰ عدم الإفساد، وكذلك إلىٰ الدعاء؛ طلبًا للرحمة، فيقول جل وعلا:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمعصية، أو بالشرك، أو بالظلم ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالطاعة، أو بالتوحيد، أو بالعدل.. إلخ، ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا﴾ من عقابه ﴿وَطَمَعًا﴾ في رضوانه.

والمعنىٰ: أحسنوا بإصلاح البلاد، وإسعاد العباد، وطلب الرحمة من رب العالمين، لتنالوا رحمة الله، حيث ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

ومن رحمته ما يتجلىٰ في الآية التالية:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

يعني: ﴿وَهُوَ﴾ الله القادر ﴿ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا﴾ أي: مبشرة بمجيء المطر ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: أمام الغيث، وهو أجلُّ نِعَم الله تعالىٰ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ﴾ حملت الرياح ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ بالماء ﴿سُقْنَٰهُ﴾ بقدرتنا وحكمتنا ﴿لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ ليس فيه ماء؛ ولا حياة فيها، ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا البلد من السحاب ﴿ٱلْمَآءَ﴾ فشرب أهله، ورويت أرضه، ودبت فيها الحياة، ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ أي: بهذا الماء ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ألوانًا وأشكالًا متعدِّدة متنوِّعة، بقدرتنا.

وهكذا، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الإخراج للنبات من الأرض ﴿نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ من قبورهم أحياءً؛ للبعث والنشور والحساب، وكان هذا المثل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتؤمنون بالله تعالىٰ، وتستعدُّون ليوم البعث بالعمل الصالح.

ثم يضرب الله مثلًا للمؤمن والكافر بالبلد الطيب، والبلد الخبيث، فيقول الله عز وجل:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

**والمعنىٰ:** والمؤمن: الذي ينزل القرآن علىٰ قلبه فينتفع به، وتظهر منه الطاعات والعبادات والأخلاق الحميدة: يشبه ﴿ٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ﴾ الذي ينزل عليه المطر، فـ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ الحسن ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ﴾.

وأما الكافر الذي لا ينتفع بالقرآن إذا سمعه، بل يزيده عنادًا وكفرًا، وسوء خلق: فهو يشبه البلد ﴿ٱلَّذِى خَبُثَ﴾ ترابه، حيث ﴿لَا يَخْرُجُ﴾ نباته ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ بعسر وصعوبة ومشقة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ التمثيل والتقريب ﴿نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ونُبيِّنها ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ الله، فيؤمنون.

بعد أن وضَّحت الآيات السابقة موقف المؤمنين، وما أعدَّ الله لهم من نعيم، وموقف الكافرين، وما أعدَّه الله لهم من عذاب !! تأتي آيات تقص علينا قصصًا أمم أنزل الله عليها الهدىٰ، وتبيِّن لنا موقف هذه الأمم من هذا الهدىٰ، وكيف عوقبت عندما رفضته.

**ومن هذا القصص أولاً:** قصة قوم نوح عليه السلام، حيث يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ يدعوهم إلىٰ التوحيد وعبادة الله،

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ يستحق أن يُعبَد، ثم قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إن ظللتم تعبدون غيره ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ وهو يوم القيامة، فآمنوا. فماذا كان جوابهم؟

﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠﴾

**يعني:** ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أُبَّهةً، والصدور هَيْبة، في الجواب علىٰ دعوته: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بعيدٍ عن الصواب والحق. وهكذا في كل عصر: يزعم الكافرون أن أهل الهدىٰ في ضلال.

وهنا رد عليهم نوح عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٦٣﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ لهم نوح عليه السلام مترفقًا بهم ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ﴾ وهي أعمّ من الضلال، وهذا **أولًا**.

**ثانيًا:** ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إليكم والرسالة تنافي الضلال.

**ثالثًا:** دوري ﴿أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾ إليكم، أدعوكم فيها للإيمان به، وتوحيده وترك ما أنتم عليه من فساد.

**رابعًا:** ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ﴾ بالخير، مع تعريفكم وجه المصلحة، بخلوص نِيَّة، ورغبة في النجاة لكم من كل مكروه.

**خامسًا:** ﴿وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وعذابه ﴿مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أنتم؛ حيث لم تسمعوا عن قوم عُذِّبوا قبلًا.

ثم قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أي: أصابكم العجب والاستغراب، بسبب ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾، ﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ ويخوِّفكم عذاب الله إن لم تؤمنوا، ﴿وَلِتَتَّقُوا۟﴾ غضب الله، بطاعته، والإذعان لتعاليمه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إذا آمنتم بالله، بسبب تبليغ رسالات ربي إليكم.

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة؟

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾

**يعني**: لم يستجيبوا لدعوته، بل لم يفكِّروا فيها أصلًا، حيث يقول ربنا بالفاء المعقِّبة: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: مباشرة وبسرعة، واستمروا على تكذيبه في دعوى النبوة، وما نزل عليه من الوحي الذي بلَّغه إليهم، وأنذرهم بما فيه من تهديد لهم وتخويف، وجاء العذاب بالطوفان:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي: في السفينة، أنجيناهم من الغرق، ﴿وَأَغْرَقْنَا﴾ في ماء الطوفان ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ واستمرُّوا على هذا التكذيب، ولم يتوبوا عنه، ويؤمنوا بالله، ويتبعوا نوحًا عليه السلام.

وكان ذلك العذاب، وهذا الإغراق، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ عن الحق، لا يبصرونه، وغير مستعدين لقبوله.

وهكذا: كانت عاقبة المكذبين من قوم نوح عليه السلام بالإغراق في ماء الطوفان.

**ومن هذا القصص ثانيًا**: قصة عاد قوم هود عليه السلام، يقول الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

**والمعنى**: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ يدعوهم إلى التوحيد وعبادة الله.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ يستحق أنْ يعبد.

ثم قال لهم: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله، وتخافون عذاب يوم عظيم، وهو يوم القيامة؟ فآمنوا. فماذا كان جوابهم؟

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أُبَّهة، والصدور هيبة ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ واستكبروا ﴿مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ في الجواب علىٰ دعوته ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي: في جهالة، وسخافة عقل، حيث تهجر دين قومك وتتركه، إلىٰ دين آخر، وتدعونا إليه أيضًا، ﴿إِنَّا﴾ كذلك ﴿لَنَظُنُّكَ﴾ زيادة علىٰ جهالتك ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ في رسالتك، التي تدَّعيها.

وهكذا في كل العصور: يزعم الكافرون أن أهل الهدىٰ في جهالة وتخلُّف، وتفاهة عقل. وهنا ردَّ عليهم هود عليه السلام:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾

**يعني:** ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام، مُترفِّقًا بهم ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ كما تزعمون، وهذا **أولًا**.

**ثانيًا:** ﴿وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكم، والرسالة تنافي السفاهة، وسخافة العقل.

**ثالثًا:** ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ إليكم، أدعوكم فيها للإيمان به، وتوحيده وترك مَن أنتم عليه من فساد.

**رابعًا:** ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ أنصحكم بالخير، وأعرِّفكم وجه المصلحة، بخلوص نية، ورغبة في النجاة لكم من كل مكروه.

ثم قال: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ﴾ أي: أصابكم العجب والاستغراب، بسبب ﴿أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ﴾ وموعظة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ﴾؟

يا قوم ﴿ٱذْكُرُوٓا۟﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ

﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وكأنَّه يذكّرهم ـ في الوقت ذاته ـ بما حدث لقوم نوح لمَّا عاندوا نبيَّهم، وكذَّبوا دعوته، كما أن الله تعالىٰ ﴿زَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي: قوة وطولًا ومالًا.

لذلك: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ نعمه، وآمنوا به ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تفوزون برضوانه، ودخول جنانه.

ماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة، الشفوفة؟

﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾﴾

**يعني**: لم يستجيبوا لدعوته؛ بل تهكَّموا به وبدعوته، حيث ﴿قَالُوٓاْ﴾ له ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ﴾ وتطالبنا أن ﴿نَذَرَ﴾ يعني: نترك ﴿مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ من الأصنام، وبعد أن سخروا منه، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه: تحدُّوه قائلين: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في أن العذاب سينزل بنا لو لم نؤمن بربك، ونتَّبع دعوتك.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم هود عليه السلام ﴿قَدْ وَقَعَ﴾ أي: وجب وثبت ﴿عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ﴾ أي: عذاب ﴿وَغَضَبٌۖ﴾ يعني: سخط منه تعالىٰ عليكم.

ثم قال لهم منكرًا عليهم عدم استجابتهم لدعوته، وطلبهم العذاب، وتحدِّيهم له، ومجادلتهم إياه: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ﴾ أصنام، ليس فيها من معنى الألوهية شيء، وأنتم الذين ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ أي: اخترعتموها من عند أنفسكم وأهوائكم وشياطينكم، ﴿مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ أي: بعبادتها ﴿مِن سُلْطَٰنٍۚ﴾ أي: دليل أو برهان لكم في ذلك تتعلَّلون به، وأنتم تعبدونها.

ثم قال لهم مهدِّدًا: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ العذاب الذي تطلبونه ﴿إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ وقوع ذلك العذاب بكم؛ بسبب تكذيبكم.

وجاء العذاب، وأُرْسِلت عليهم الريح العقيم، التي لا خير فيها؛ حيث إنها لا تحمل المطر، ولا تلقح الشجر، وأهلكتهم هذه الريح العقيم، بقدرة الله تعالىٰ. أما عاد عليهم السلام:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾

**يعني:** ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ والمؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ مَعَهُۥ﴾ من عذاب هذه الريح العقيم ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾، وبهذا: ﴿قَطَعْنَا دَابِرَ﴾ يعني: أنهينا تمامًا علىٰ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ودَّمرناهم عن آخرهم، واستأصلناهم من الوجود.

وذلك: لأنهم ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وكذلك ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: بسبب عدم إيمانهم بالله.

وهكذا كانت عاقبة المكذبين من عاد، قوم هود عليه السلام بالريح العقيم.

**ومن هذا القصص ثالثًا:** قصة ثمود قوم صالح عليه السلام، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۘ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ يستحق أنْ يعبد منكم.

فعاندوه، وكذَّبوه، وظلَّ يدعوهم، وينصحهم، وهو يصبر علىٰ أذاهم، حتىٰ طلبوا منه آية تدل علىٰ صدقه في دعواه، وهذه الآية التي طلبوها ناقة: يخرجها لهم من صخرة عيَّنوها، وتحققت الآية وخرجت الناقة، علىٰ الوجه الذي طلبوا.

وهنا قال صالح عليه السلام لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ﴾ بتكوينه المباشر، بلا صُلب ولا رحم، قال لها الله كوني: فكانت، كما ترون، وهي لكم ﴿ءَايَةً﴾ علىٰ صدقي، كما طلبتم، ﴿فَذَرُوهَا﴾ أي: اتركوها ﴿تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ وتشرب من ماء الله، ولا تتعرضوا لها بمنع عن هذا أو ذاك.

﴿وَلَا﴾ كذلك ﴿تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ بأذى، أو ذبح؛ إكرامًا لآية الله، ولو تعرَّضتم لها بمنع، أو أصبتموها بسوء ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ثم وعظهم وذكَّرهم بمن كان قبلهم، حيث قال:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾

**والمعنى:** ﴿وَ﴾ يا قوم ﴿ٱذْكُرُوٓاْ﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ في الأرض ﴿مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ قوم هود عليه السلام.

وكأنَّه ـ بهذا ـ يذكِّرهم بما حدث لقوم هود لمّا عاندوا نبيّهم، وكذّبوا دعوته.

﴿وَ﴾ كما أن الله تعالى ﴿بَوَّأَكُمْ﴾ أسكنكم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مكانًا بين الحجاز والشام ﴿تَتَّخِذُونَ﴾ أي: تعملون وتصنعون ﴿مِن سُهُولِهَا﴾ أي: في سهولها ﴿قُصُورًا﴾ تُقيمون فيها صيفًا، ﴿وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ﴾ أي: في الجبال ﴿بُيُوتًا﴾ تُقيمون فيها شتاءً.

﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي: نِعَمه هذه، وآمنوا به سبحانه، واشكروه عليها، ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: ولا تفسدوا في أرض الله، وتُتعبوا خلق الله، بسبب عدم إيمانكم بالله، فإذا تذكَّرتم نِعَم الله عليكم، ولم تفسدوا في الأرض، وآمنتم بالله، تفوزون برضوانه، ودخول جناته.

فماذا كان موقف قومه من هذه الدعوة الواضحة الشفوقة؟

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾

**يعني:** لم يستجيبوا لدعوته، بل تندَّروا به وبدعوته، وأكثر من هذا لم يخاطبوه، كما خاطبهم، بل توجهوا بالخطاب للمستضعفين الذين آمنوا معه.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء، الذين يملأون العيون أُبَّهة، والصدور هيبة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وكفروا ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ في الجواب على دعوته، قالوا: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾ فقط دون مَن كفر، استهزاءً ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إليكم؟ قالوا أي: المؤمنون الضعفاء، نعم نعلم أن صالحًا مرسل من ربه، و﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ﴾ من ربه ﴿مُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وكفروا لهم: ﴿إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ أي: بما أرسل به صالح ﴿كَٰفِرُونَ﴾.

ولم يكتفوا بالقول، والاستهزاء فقط، بل أتبعوا القول الفعل، حيث يقول تعالى عنهم:

﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾

**يعني**: سخروا منه، ومن الذين آمنوا معه، وأنكروا عليه ما دعاهم إليه، وتحدُّوه.

وجاءت الآية، التي طلبوها، ورأوا الناقة، وشربوا من لبنها، ولكنهم ازدادوا كفرًا وطغيانًا ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ التي قال لهم نبيُّهم عنها ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، حيث ذبحها واحد منهم، بأمرهم، ورضاهم.

﴿وَ﴾ بهذا ﴿عَتَوْا۟﴾ تكبَّروا ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ ولم يؤمنوا به، ولم يخضعوا له، ﴿وَ﴾ ازدادوا عنادًا وتحدِّيًا، حيث ﴿قَالُوا۟﴾ لنبيِّهم: ﴿يَٰصَٰلِحُ﴾ استهزاءً به، وازدراءً لدعوته ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب على قتلها ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

وجاءهم العذاب من الله:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

**يعني**: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ زلزلة شديدة من الأرض، وصيحة عنيفة من السماء، فماتوا جميعًا، وهم في بيوتهم، يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ أي: في بيوتهم ﴿جَٰثِمِينَ﴾ يعني: باركين على ركبهم ميتين.

وأما صالح عليه السلام:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

يعني: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ صالح، وتركهم موتىٰ، هلكىٰ، ﴿وَقَالَ﴾ توبيخًا وتقريعًا، وليكون كلامه موعظة ودعوة باقية لمن يأتي من بعده ليعتبر: ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي﴾ إليكم بالخير، ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ لتؤمنوا ﴿وَلَٰكِن﴾ أنتم وأمثالكم ﴿لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ ولذلك حدث لكم ما حدث، ونزل بكم ما نزل، مما تستحقون؛ لعدم إيمانكم، وهكذا كانت عاقبة المكذبين من قوم صالح عليه السلام أن أخذتهم الرجفة، وهي الزلزلة والصيحة الشديدتان.

**ومن هذا القصص رابعًا:** قصة قوم لوط عليه السلام:

ويلاحظ: أن الله عز وجل بعد أن قصَّ علينا قصة ثمود، وقوم صالح، يقص علينا بعدها ـ مباشرة ـ قصة قوم لوط، مع أنه عليه السلام من المستجيبين لإبراهيم عليه السلام الذي لم تذكر الآيات قصة قومه، بل تدخل مباشرة إلىٰ قصة قوم لوط.

ذلك: حيث إن السورة تتحرىٰ ـ كما يقول صاحب الظلال: مصارع المكذِّبين، وقوم إبراهيم لم يهلكوا؛ لأنَّه لم يطلب من ربه هلاكهم، بل إنه ﴿ٱعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ﴾ [مريم: ٤٩].

وفي قصة لوط عليه السلام، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾

يعني: ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿لُوطًا﴾ إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ التوحيد، وعبادة الله، وترك الفاحشة، ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ مستنكرًا عليهم فعلهم، يا قوم ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ في أدبار الرجال، وهي فعلة سيئة قبيحة ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾ أي: ما عملها قبلكم ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أبدًا ﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإنس والجن.

ثم قال لهم: أنتم أول مَن فعلها، حيث:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾

**يعني**: إنكم تجامعون الرجال ﴿شَهْوَةً﴾ بهيمية ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ اللائي هُنَّ محل الشهوة الحقيقية.

هذا منتهىٰ التوبيخ علىٰ هذا الفعل الخبيث؛ لأن الله تبارك وتعالىٰ خلق الإنسان، وركَّب فيه شهوة النكاح؛ لبقاء النسل، وعمران الدنيا، وجعل النساء محلًا للشهوة، وموضعًا للنسل، فإذا تركهُنَّ الإنسان، وعدل إلىٰ غيرهِنَّ من الرجال: فكأنما أسرف في ظلمه وبغيه؛ لأنه وضع الشيء في غير محله.

لذلك قال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ متجاوزون الحلال إلىٰ الحرام.

فماذا كان جوابهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾

**يعني**: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لم يكن ﴿جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ المستكبرين، عليه ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ أي: لوطًا ومَن معه علىٰ دينه ﴿مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾ حيث ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

وقد قالوا ذلك: تجبُّرًا وطغيانًا واستهزاءً، وهذه طبيعة المستكبرين: يهزءون من أهل الطُّهر، والصلاح، ويأمرون بإبعادهم عن مواقع التأثير والإصلاح.

وكتب الله عليهم العذاب والهلاك، ولكنه: نجَّا لوطًا والذين آمنوا معه من هذا العذاب، حيث يقول:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

**يعني**: ولمَّا جاء العذاب، ونزل بقوم لوط ـ كما سيأتي عنه الحديث ـ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي: لوطًا عليه السلام ﴿وَأَهْلَهُۥٓ﴾ وهما فقط ابنتاه ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ الكافرة، ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقين في العذاب.

ولكن ما هذا العذاب الذي نزل بقوم لوط؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

**يعني**: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم﴾ من السماء ﴿مَّطَرًا﴾ عجيبًا، بيَّنه الله تعالىٰ في آية أخرىٰ بقوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

﴿فَٱنظُرْ﴾ أيها العاقل، واعتبر بحالهم، وابتعد عن أفعالهم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ ؟ وهكذا كانت عاقبة ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من قوم لوط عليه السلام، أن أمطر الله عليهم ﴿... حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود ٨٢، ٨٣]

**ومن هذا القصص خامسًا:** قصة أهل مدين، قوم شعيب عليه السلام، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾

**والمعنىٰ:** ﴿وَ﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ﴾، ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ يستحق أن يُعبد منكم، فعاندوه، وكذَّبوه، وظلَّ يدعوهم، وينصحهم، وهو يصبر علىٰ أذاهم، حتىٰ طلبوا منه آية تدل علىٰ صدقه في دعواه، وتحققت الآية وجاءت.

وقال لهم: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ﴾ أي: آية، معجزة، بيِّنة واضحة علىٰ صدقي لكم، وكل رسول له معجزة أو معجزات.

ولكن القرآن الكريم: لم يبيِّن هذه الآية، وسكت عنها، ونحن بدورنا نسكت عما سكت عن بيانه القرآن.

ثم قال لهم: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: أتموه فيما بينكم؛ حيث كانت عادتهم.. نقص الكيل والميزان، وهي آفة خطيرة، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي: لا تُنقصوا الناس حقوقهم وأقدارهم، حيث كانت هذه عادتهم، بخس الحقوق، وهي: آفة خطيرة، ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ بالكفر والمعاصي، والظلم والسرقات..... إلخ؛ حيث كانت هذه عادتهم: الإفساد في الأرض، وهي آفة ـ كذلك ـ خطيرة.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن أردتم الإيمان، فبادروا إليه، والتزموا بهذه التعاليم. ثم قال لهم كذلك:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

**يعني:** ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ﴾ طريق ﴿تُوعِدُونَ﴾ تخوِّفون مَن يريد شعيبًا، وتقولون له: إنَّه كذَّاب، ارجع حتىٰ لا يفتنك عن دينك، فإن لم ترجع، وآمنت به: قتلناك، وبذلك كنتم ﴿تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ وتصرفونهم عن الإيمان، ﴿وَتَبْغُونَهَا﴾ أي: الطريق إلىٰ الله ﴿عِوَجًا﴾ معوجَّة منحرفة.

﴿وَٱذْكُرُوا۟﴾ يا قوم نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا﴾ عددكم ﴿فَكَثَّرَكُمْ﴾ الله، وبارك في نسلكم، حتىٰ كثرت أعدادكم، لتؤمنوا به وتشكروه علىٰ هذه النعمة، ﴿وَٱنظُرُوا۟﴾ يا قوم ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ وهي الهلاك والدمار؛ لتعتبروا، فتؤمنوا، ولا تفسدوا؛ فينجِّيكم الله من الفساد وأخطاره.

ثم قال لهم مهدِّدًا:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾

**يعني:** إن كانت الدعوة التي أتيتكم بها، ودعوتكم إليها، انقسم الناس فيها فريقان: طائفة آمنت، وطائفة لم تؤمن.

﴿فَٱصْبِرُوا۟﴾ وانتظروا ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا﴾ أي: بين الفريقين، فيظهر المحق من المبطل.

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ لأن حكمه عدل وحق.

وفي الآية: بيان أن الدعوة تقسم الناس، أو ينقسم معها الناس، إلىٰ فريقين: أهل حق، وأهل باطل.

كما أن الآية فيها: وعد للمؤمنين بالفوز والنصر، ووعيد للكافرين بالخسران والهزيمة.

فماذا قال الملأ من قومه؟ وماذا كان موقفهم؟

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى

﴿مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

**يعني**: لم يستجيبوا لدعوته، ولم يردوا علىٰ حجته، بل لجأوا إلىٰ التخويف والتهديد حينما عجزوا عن الرد، وبَعُدوا عن الهداية.

حيث ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ أي: الرؤساء والكبار فيهم، الذين يملأون العيون أُبَّهة، والصدور هيبة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وكفروا ﴿مِن قَوْمِهِۦ﴾ في الجواب علىٰ دعوته، أمامك واحد من أمرين:

١ ـ ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ وتبتعدون عنا بدعوتكم هذه.. !!

٢ ـ ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ إن أردتم العيش بيننا، والبقاء علىٰ ديننا!!

قال لهم شعيب عليه السلام: أتخرجوننا من ديارنا، أو تجعلوننا نكفر معكم، حتىٰ ولو ﴿كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ كنا كارهين لهذا وذاك؟ ثم أضربَ صفحًا عليه السلام عن الرد علىٰ قضية الطرد من الديار، واهتم بقضية كفرهم، حيث قال: ﴿إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم﴾ أي: كفرنا مثل كفركم ﴿بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ﴾ وهدانا إلىٰ الإيمان، فـ ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

وفوق كل هذا ما يتصور أبدًا، وما يصح، وما ينبغي، ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ﴾ بحال من الأحوال، ولا في وقت من الأوقات ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ﴾ ذلك؛ حيث إن الكائنات كلها بمشيئته سبحانه، خيرها وشرها.

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ﴾ أي: هو عالم بكل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحوَّل، وقلوبهم كيف تتقلَّب، ومرد الأمر كله إليه.

﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في أن يثبِّتنا علىٰ الإيمان، ويحمينا من كيد الأعداء.

ثم أعرض عنهم وتوجَّه إلىٰ ربه عز وجل قائلًا: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا﴾ أي: احكم بيننا وبين قومنا بنصرك وعدلك، ﴿وَأَنتَ﴾ يا ربنا ﴿خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ الحاكمين.

ولمَّا عجز الكفار عن مناقشة شعيب عليه السلام، وأغلقوا في الوقت ذاته آذانهم عن دعوته: اتجهوا إلىٰ عامة الشعب فيهم؛ يحذرونهم من شعيب عليه السلام، قال تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾

أي: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ قال الكبار منهم، والرؤساء فيهم، الذين يملأون العيون أُبَّهة، والصدور هيبة، وهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ لعامة الشعب، ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا﴾ وآمنتم بدعوته، وتركتم ديننا، وما نحن فيه ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ ما أنتم فيه من مكاسب مادية.

وهكذا عاند الكبار والرؤساء ولم يؤمنوا!! وطغىٰ الكبار والرؤساء، فصدوا غيرهم عن الإيمان!! ورضي الكبار والرؤساء، والأتباع بالكفر الذي هم عليه، والضلال الذي هم فيه، ولم يتبعوا دعوة نبيهم. فماذا حدث لهم؟

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾

**يعني**: فأخذتهم الزلزلة، فأهلكتهم، سريعًا سريعًا، ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ ميِّتين.

وبهذا الشكل وبهذه السرعة، وبهذا العدل صار:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾

**يعني**: صار ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ ولم يؤمنوا بدعوته، من الكبار والرؤساء والأتباع، بعد هلاكهم ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾ كأن لم يكونوا أصلًا، ولم يقيموا في هذه الديار قبلًا.

صحيح: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا﴾ ولم يؤمنوا بدعوته، من الكبار والرؤساء والأتباع ﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ لا مَن اتبعه وآمن به.

وبعد أن نزل العذاب بقوم شعيب، وبعد هلاكهم؛ نظراً لكفرهم، يبدو أن سيدنا شعيباً عليه السلام حزن علىٰ عدم إيمان قومه:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾

**يعني:** ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم، ﴿وَقَالَ﴾ في نفسه ﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ لتؤمنوا بها ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ حتىٰ لا يصيبكم العذاب، ولكنكم: كفرتم بـ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّى﴾ ولم تنتفعوا بنصحي؛ فأصابكم العذاب، لكفركم.

وينبغي أن لا أحزن عليكم، وإلَّا ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ﴾ أي: أحزن ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾؟!!

بعد أن قَصَّ الله تبارك وتعالىٰ علينا ـ كما سبق ـ ما فعله بأقوام: نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، عليهم السلام يعقِّب ـ سبحانه وتعالىٰ ـ بتعقيب يوضِّح فيه سُنَّته في المكذبين، ويخوِّف به أهلَ الكفر علىٰ مدار الزمان، حيث يقول عز من قائل:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

**يعني:** لم نرسل في ﴿قَرْيَةٍ﴾ أي: مدينة، نبياً يدعو أهلها للإيمان بالله رب العالمين، فكفروا، وتكَّبروا، ولم يتبعوا نبيَّهم، ولم يؤمنوا بربهم ﴿إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا﴾ أي: أهل هذه المدينة ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ﴾ أي: بالبؤس والفقر، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ من متاعب وأمراض، وذلك: ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ إلىٰ ربهم، ويتخلُّوا عن الكفر والكبر.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

**يعني:** بعد أن عاملناهم بالشدة والمحنة: نعاملهم بالرخاء والنعمة ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما يسؤوهم، بالحَسَنَةِ، وهي كل ما يسرهم اختبارًا لهم؛ ليؤمنوا ويشكروا!!

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي: كثروا، وتحسَّنت أحوالُهم، ونَمت أموالُهم، فماذا فعلوا؟ هل آمنوا؟ كلا، بل ﴿قَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾، أي: هذه عادة الدهر، وطبيعة

الأيام، يوم لك ويوم عليك، وما هذا التحوُّل بين الضرَّاء والسرَّاء بعقوبة ولا اختبار !! ولا رب هناك، ولا رسول يطاع، ولا إيمان يكون!!

يقول رب العزة: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ أي: بالعذاب ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت نزوله.

ثم يبيِّن المولىٰ ـ في هذا التعقيب ـ العلاقة بين الإيمان ومعاملة الله لأهله، هذه العلاقة: التي قد تخفىٰ علىٰ الكثيرين؛ لأن آثارها قد لا تظهر في المدىٰ القريب، وإن كانت واقعة لا محالة، ولو علىٰ المدىٰ البعيد، حيث يقول الله عز وجل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ﴾ البلاد ﴿ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسله ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ الشرك، وابتعدوا عن الذنوب والمعاصي: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ أي: خيرات ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: من كل جهة، ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟﴾ بالله وآياته ورسله ﴿فَأَخَذْنَٰهُم﴾ عاقبناهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بسبب كفرهم، وسوء فعلهم.

ثم يكون التذكير بمصارع المكذِّبين، والتهديد الإلهي، الذي يهزُّ القلوب، ويوقظ الغافلين، في قوله تعالىٰ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يعني: هل أَمِنَ الكافرون من أهل البلاد أن يأتيهم عذابُنا ليلًا، وهم نائمون؟

أَوَ أَمِنَ الكافرون من أهل البلاد أن يأتيهم عذابُنا نهارًا وهم لاهون بأعمالهم التي لا تنفعهم عن الإيمان شيئًا؟

هل أَمِنوا مكرَ الله بهم، وأخْذَهم بالعذاب من حيث لا يشعرون؟

إن كان كذلك، فقد خسروا إذْ لا يأمَن عذاب الله إلَّا الكافرون، الذين خسروا أنفسهم، حتىٰ صاروا إلىٰ النار!!

ثم أَوَ لَمَ يتبيَّن ﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ﴾ ويَخْلُفونَهم فيها ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم﴾ أي: عذَّبناهم ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ كما عذَّبنا مَنْ قبلهم، وبذلك: نهلك ـ بقدرتنا ـ الوارثين، كما أهلكنا المورُوثين؟

علىٰ كل حال نحن ﴿نَطْبَعُ﴾ أي: نختم علىٰ قلوب الكافرين ﴿فَهُمْ﴾ لا يتعظون، و ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ أخبار الأمم السابقة، سماع تدبُّر وتعقُّل وإفادة.

وينتهي هذا التعقيب الإلٰهي بلفت نظر الحبيب ﷺ إلىٰ: تلخيص لأَمْر الأقوام التي تعطَّلت فطرتُها، وغَفلَتْ قُلوبُها، وكذَّبت رُسُلَها، وكفَرَت بربِّها، حيث يقول له:

﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

**يعني**: هذه القرىٰ، التي هي قرىٰ قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وقوم شعيب، نقص عليك ـ تَثْبيتاً لك، وتحذيراً للمكذبين ـ بعضَ أنبائها، هنا في هذه السورة، وبعضَ أنبائها في سور أخرىٰ من سور القرآن الكريم.

هؤلاء جاءتهم رسلُهم بالمعجزات؛ فكذَّبوا بها، ولم يؤمنوا، واستمرُّوا علىٰ هذا التكذيب إلىٰ آخر أعمارهم؛ حيث إنه طُبع وخُتم علىٰ قلوبهم، فلم يصل إليها هدىً ولا إيمان، ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الختم علىٰ القلوب ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ به، وبدعوة رسله عليهم السلام؛ لِمَا علم الله منهم أنهم يختارون الثبات والاستمرار علىٰ هذا الكفر.

هذا، ﴿وَمَا وَجَدْنَا﴾ لأكثر الناس، ومنهم أهل هذه القرىٰ ﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ يستمسكون به، ويثبتون عليه ولكنَّه: الهوىٰ المتقلِّب، والطبيعة التي لا تصبر علىٰ تكاليف العهد، ولا تستقيم علىٰ صواب، ﴿وَإِن وَجَدْنَآ﴾ أي: ولكن وجدنا ﴿أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ﴾ منحرفين عن دين الله.

بعد هذا التعقيب ـ الذي عشنا معه ـ علىٰ مصارع المكذبين من: قوم نوح، وقوم هود،

وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، يأتي الحديث عن: قصة موسىٰ عليه السلام، مع فرعون ومَلَإِهِ أولًا، ثم مع قومه بني إسرائيل أخيرًا.

**ويلاحظ**: أن قصة موسىٰ عليه السلام تشغل في هذه السورة، أوسع مساحة، وأكبر قدر شغلته في سورة واحدة من سور القرآن كلها، ويبدأ الحديث عن قصة موسىٰ عليه السلام، علىٰ النحو التالي، قال الله عز وجل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

يخبر ربنا ـ سبحانه وتعالىٰ ـ أنه بعث موسىٰ عليه السلام، بعد هلاك هذه الأمم المكذِّبة. بعثه إلىٰ فرعون مصر وقومه بالآيات البيِّنات والحجج الواضحات؛ ليؤمنوا بالله رب العالمين.

ولكنهم ظَلَمُوا، أي: كفروا، وظلموا الناس حين صدُّوهم عن الإيمان بالله رب العالمين، واتباع أنبيائه المرسلين.

﴿فَٱنظُرْ﴾ يا محمد، ويا كل مَن يقتدي به، ويتابعه، ويعتبر بمصارع المكذبين ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ الذين كفروا، وكذَّبوا، وصدُّوا عن سبيل الله؛ حيث كانت نهايتهم: الغرق.

ثم يبدأ المولىٰ عز وجل في تفاصيل قصة موسىٰ عليه السلام فيقول:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين بعثه الله إلىٰ فرعون ﴿يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ﴾ إليك ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ لتؤمن به، وتتبع تعاليمه.

ثم قال له تقوية لكلامه، وتوضيحًا لقضيَّته:

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾

**يعني**: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ﴾ جدير بي، ولا يليق مني أن ﴿أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾

حيث: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ﴾ أنتَ وقومَك بآية واضحة ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دلالة علىٰ صدقي معكم، لذلك ﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وأطلق سراحهم؛ حتىٰ يذهبوا معي راجعين إلىٰ الأرض المقدسة. فماذا فعل فرعون؟

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ فرعون لموسىٰ عليه السلام ﴿إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ﴾ كما تدَّعي من عند من أرسلك ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ إليَّ، وأظهِرها أمامي، لتُثْبت بها دَعْواك، وأُصَدِّقُكَ فيما تريد ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. ماذا فعل موسىٰ عليه السلام؟

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

**يعني**: أجاب موسىٰ عليه السلام فرعون فورًا، لَمَّا قال له: ﴿فَأْتِ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٠٦] أي: هذه العلامة التي تدَّعيها علىٰ صدقك.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ﴾ من يده أمام فرعون ومَلإِه، ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ في الحال، تتحوَّل ـ بقدرة الله تعالىٰ ـ إلىٰ ثُعْبَانٍ مُبِينٍ، أي: حية عظيمة واضحة.

ثم ﴿نَزَعَ يَدَهُۥ﴾ أخرجها من جيبه ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ في الحال ﴿بَيْضَآءُ﴾ بياضًا عجيبًا، خارجًا عن العادة، فيه نور واضح ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ من غير مرض بها، ولا برص فيها.

وهنا: يتفق فرعون مع مَن حوله من بطانته علىٰ إطفاء نور آيته، وإفساد حجته، حيث:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾﴾

أي: قالوا هذا ساحر ماهر، عليم بفنون السحر.

وهو ﴿يُرِيدُ﴾ بسحره هذا ﴿أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ مصر، ويستولي عليها هو، ويستأثر بكنوزها وخيراتها هو!!

وهنا: قال فرعون لبطانته: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فبماذا تشيرون عليَّ؟ وفكَّرت البطانة وقدَّرتْ، ثم نظرتْ، ثم عَبَسَتْ وَبَسَرَتْ، ثم أدْبرتْ واستكبرتْ.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ١١١ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ١١٢﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾ أي: احبسه وأخاه هارون، ولا تقتله ﴿وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ﴾ جندك ﴿حَٰشِرِينَ﴾ جامعين للسحرة، وسوف ﴿يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ﴾ ماهر، يكشف سحره للناس، ويبيِّن كذبه للخلق أجمعين.

وأرسل فرعون جنوده لجمع السحرة من البلاد:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٣﴾

**يعني:** ﴿جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ من بلادهم، لبلاط فرعون، وعلموا بالقصَّة، وعرفوا أهميتهم، ومدىٰ الحاجة إلىٰ سحرهم، لذلك ﴿قَالُوٓاْ﴾ لفرعون ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ كبيراً عظيماً ﴿إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾ أَيْ: إنْ غَلَبْنا موسىٰ في سحره بِسِحْرنا.

ولرغبة فرعون في النصر علىٰ موسىٰ، وإبطال سحره:

﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ١١٤﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم فرعون ﴿نَعَمۡ﴾ لكم ما أردتم، وفوق ذلك ﴿وَإِنَّكُمۡ﴾ تكونون عندي ﴿لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ لي، المنعَّمين بعطائي.

ولمَّا اطمأن السحرة إلىٰ وعد فرعون، وداعَبت خيالهم ميزات القرب منه، وكثرة عطاياه لهم: اتجهوا إلىٰ موسى عليه السلام، في تحدٍّ وعناد:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ لموسىٰ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن﴾ تبدأ أنت، و ﴿تُلۡقِيَ﴾ عصاك، كما فعلت أمام فرعون ﴿وَإِمَّآ أَن﴾ نبدأ و﴿نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ﴾ لمَا معنا.

وهنا أراد موسىٰ أن يُظهر للناس بطلان سحرهم بعد أن يَنْدَهِشوا به، ثم تأتي عليه المعجزة فتسْحَقَه وتَمْحَقَه، حيث:

﴿قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ١١٦﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ موسىٰ للسحرة ﴿أَلۡقُواْ﴾ ما معكم؛ ازدراءً لشأنهم، وقِلَّة مبالاة بهم وبسحرهم.

﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا﴾ أي: السحرة، ما معهم من الحِيَل ﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: صرفوها عن حقيقة إدراكها بالحيل والشعوذة، ﴿وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ أي: أخافوهم؛ حيث خَيَّلوها حيَّات تسعىٰ، وتتجه نحو الجماهير التي خافت جدًّا، ﴿وَجَآءُو﴾ في أفعالهم هذه ﴿بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ عندهم، وفي أعين الناس، وإن كان في نفسه حقيرًا تافهاً .﴿فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه: ٦٧، ٦٨].

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾

**يعني:** فألقىٰ موسىٰ عصاه من يده، فإذا هي حية تسعىٰ، وإذا هي ﴿تَلْقَفُ﴾ أي: تبتلع آلاتهم، وأدواتهم، التي يدَّعونها سحرًا، و ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ علىٰ الناس أي: يكذِّبون عليهم بها.

﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

أي: بعصى موسىٰ أصبح الحق واقعًا، ماثلًا للعيان، يراه الجميع، وأما ما فعله السحرة، وما كانوا يدَّعونه، ويعيشون عليه، ويكذِّبون علىٰ الناس به: فقد ظهر بطلانه.

وأول مَن أدرك ذلك: هم السحرة أنفسهم، ولهذا يقول المولىٰ عز وجل:

﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾

**يعني:** ﴿فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ﴾ غلبوا علىٰ أمرهم، وشعروا بهوانهم ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أمام آية الله تعالىٰ، التي آمنوا بصدقها، ولذلك: وقعت الواقعة:

﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾

وليس لفرعون، كما كانوا يفعلون قبلًا، بل:

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾

وحتىٰ لا يظن فرعون أو غيره أنهم يقصدونه بقولهم: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقد بيَّنوا للحاضرين، وللدنيا كلها: مَن الذي يقصدون، حيث قالوا:

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

إذْ أن ما رأيناه لا يكون من بشر، بل هذا فعل رب البشر.

نعم فعل رب موسى وهارون!!

وهنا جُنَّ جنون فرعون!!

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

أي: لابد لمن أراد الإيمان بموسىٰ أن يحصل علىٰ إذن مني، وقد ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾، وهذا قمة الكبرياء!! وقمة الطغيان!!

ثم لم يحقق معهم، ولم يسألهم عن السبب لمَا فعلوا، بل ألقىٰ التهمة عليهم، ولفَّق القضية لهم، حيث قال:

﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾.

وهدَّد وتوعَّد قائلًا: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما سأفعله بكم وبأمثالكم، حتىٰ يرجعوا عن إيمانهم بـ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٢]..!!

ولمَّا لم يرجعوا، ولمَّا ثبتوا علىٰ إيمانهم، قال:

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

أي: لأقطعن منكم اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ، واليد اليسرىٰ مع الرجل اليمنىٰ.

وبعد ذلك: ﴿لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بدون استثناء علىٰ جذوع النخل.

وهذا: تهديد مخيف، تنخلع له القلوب، وتطير منه الأفئدة، ولكن المؤمنين: يثبِّتهم الله، ويهوِّن عليهم الآلام، بل يجعلهم ـ بقدرته ـ يستعذبون آلام الدنيا للنجاة من آلام الآخرة، حيث نرىٰ أنَّ السحرة:

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

يعني: نحن لا نبالي بتهديدك وتعذيبك؛ لأنا صائرون إلىٰ رحمة ربنا سبحانه وتعالىٰ، ثم قالوا له:

﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

أي: نحن نعرف جيدًا أن تهديدك لنا، وتعذيبك إيَّانا، ليس لشيء إلَّا ﴿أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾.

ولذلك: لن نتخلى عن إيماننا هذا مهما فعلت بنا، ثم أهملوه وتركوا النقاش والكلام معه، وتوجهوا إلىٰ ربهم قائلين: يا ربنا هب لنا منك صبرًا واسعًا، وأكثره علينا، حتىٰ يفيض ويغمرنا، وثبتنا علىٰ إيماننا ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ لك، غير مفتونين، بسبب وعيد وتهديد وتعذيب هذا الطاغية فرعون.

وبهذا انتهىٰ الكلام عن هؤلاء السحرة ـ الذين آمنوا بالله رب العالمين ـ في هذه السورة، إلَّا أنَّ قصة موسىٰ عليه السلام نفسه مع فرعون لم تنته بعد، حيث إن بطانة فرعون وحاشيته، والمنتفعين برفقته صاروا يحرِّضون طاغوتهم علىٰ موسىٰ عليه السلام، يقول تعالىٰ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قالوا لفرعون: أتترك موسىٰ وقومه، بعد هذه الجولة التي انتصر فيها عليك ﴿لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرض مصر، بالاستعلاء والتكبُّر عليك، وتغيير دين الناس ﴿وَيَذَرَكَ﴾ ويترك احترامك والخضوع لك، والمذلة بين يديك، ولا يعبد ﴿ءَالِهَتَكَ﴾؟

وقد أثَّر هذا الكلام في فرعون، حيث قال سنفعل بهم ما كنا نفعل من قبل ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ﴾ الذكور ﴿وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ لخدمتنا، وعلىٰ كلٍّ: لا تخافوا فالأمن مستتب، وكل شيء تحت سيطرتنا، ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَـٰهِرُونَ﴾ أي: قادرون وغالبون.

وبلغ هذا الكلام موسىٰ عليه السلام وقومه، وخاف قومه فماذا فعل؟

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾

**يعني**: طلب منهم الاستعانة بالله تعالىٰ، والصبر علىٰ تحمُّل مشاق الدعوة إلىٰ الله، وإيذاء فرعون لهم.

ثم وعدهم بميراث أرض مصر والشام: إذا اتقوا الله، وثبتوا علىٰ إيمانهم ومبادئهم.

ولكنهم مع ذلك اشتكوا لموسىٰ عليه السلام:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ لموسىٰ لقد ﴿أُوذِينَا﴾ من فرعون وقومه ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا﴾ وزاد إيذاؤهم لنا ﴿وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ فمتىٰ النصر، والحال يزداد سوءًا؟

أجاب موسىٰ قومه: ﴿قَالَ﴾ اصبروا ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ﴾ نتيجة صبركم واستعانتكم به ﴿أَن يُهۡلِكَ﴾ فرعون ﴿عَدُوَّكُمۡ﴾، ثم ﴿يَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من بعده.

وسوف يكون هذا: اختبارًا لكم، في حسن خلافتكم من بعده ﴿فَيَنظُرَ﴾ ربكم ﴿كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ﴾ آنذاك ؟ هل تحسنون أو تسيئون؟

وبعد أن حضَّ موسىٰ قومه علىٰ الصبر، والرجاء الحسن، بدأت العقوبات الإلٰهية: تتوالى علىٰ فرعون؛ انتصارًا لموسىٰ عليه السلام وقومه، ووعظًا لفرعون وقومه.

ماذا حدث لفرعون وقومه؟ يقول رب العزة تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ١٣٠﴾

**يعني**: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ﴾ ولقد ابتلينا ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ وهم المصريون، ﴿بِٱلسِّنِينَ﴾ وهي: الجدب والقحط والمجاعة، بسبب عدم نزول الأمطار، ﴿وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وكذلك بنقص الثمرات، يعني إتلاف الغلات والثمار بالآفات؛ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون، فيؤمنون.

ولكنهم كانوا كغيرهم من أهل الكفر والضلال:

﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۚ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾

**يعني**: كانوا يتمادون في الكفر والضلال، ولا يردُّون الفضل لله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ﴾ وهي: الخصب والغنىٰ ﴿قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ﴾ هذه حق واجب لنا نستحقه، ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ﴾ أي: قحط ومجاعة ﴿يَطَّيَّرُواْ﴾ يعني: يتشاءموا ﴿بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۚ﴾ بموسىٰ عليه السلام ومَن معه، وكأنهم هم السبب.

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: الحقيقة أن سبب خيرهم وشرهم عند الله تعالىٰ؛ حيث إنه وحده الذي يقدر ما يصيبهم من حسنة أو سيئة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك ؛ لجهلهم وكفرهم.

﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

أي: ﴿وَقَالُواْ﴾ قالوا لموسىٰ بالرغم من هذه الابتلاءات والمجاعات، وحتىٰ ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ﴾ من آياتك ﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ حتىٰ نؤمن لك ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ولعنادهم هذا سلَّط الله عليهم عذابه، حيث يقول عز وجل:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

أي: سلَّطنا عليهم هذه الآيات الخمس الواضحات: الطوفان، والجراد، والقُمَّل، والضفادع، والدم ليؤمنوا، ولكنهم استكبروا وعاندوا، ولم يؤمنوا ﴿وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ في إيذائهم لله ولرسوله وللمؤمنين.

وقد يمكرون مع كل آية تنزل عليهم من هذه الآيات، قال الله تعالىٰ:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾

يعني: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ﴾ كانوا كلما وقع عليهم ﴿ٱلرِّجْزُ﴾ وهو العذاب الحاصل من كل آية من هذه الآيات ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما بينك وبينه من صلة وعهد أن يكشف عنا ما نحن فيه ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا﴾ بدعائك هذا ﴿ٱلرِّجْزَ﴾ الذي نزل بنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ﴾ كما تطلب ﴿بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

وهنا: يدعو موسى ربه أن يحقق ما طلبوا، حتىٰ يؤمنوا، فيستجيب له ربه، ولكنهم ينكثون في وعدهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يعني: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ العذاب بسبب دعاء موسىٰ عليه السلام، في كل واحدة ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ﴾ أي: إلىٰ وقت ينكثون فيه وعدهم، ويغدرون في عهدكم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ ينقضون عهدهم، ويصرُّون علىٰ كفرهم.

ولنقضهم العهود!! ولعدم إيمانهم!! ولإصرارهم علىٰ الكفر!! يقول ربنا عز وجل:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

أي: عاقبناهم بالإغراق في البحر العميق، وأمواجه العاتية، وذلك: لأنهم كفروا وكذَّبوا بآياتنا، وغفلوا عنها، ولم يتفكَّروا فيها، وينتفعوا بها.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾

في هذه الآية الكريمة: يخبر تعالىٰ أنه ـ بعد إهلاك فرعون ومَلَإِهِ ـ أورث ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ﴾ منهم، وهم بنو إسرائيل ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي: أرض الشام.

وبذلك: ﴿تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ وهي وعده تعالىٰ لهم في قوله عز وجل:

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

ثم قال: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ﴾ من العمارات والمصانع والمزارع ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي: يبنون.

وبعد هلاك فرعون وقومه في البحر، وبعد نجاة موسىٰ عليه السلام وقومه من الغرق، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

ومن هنا يبدأ الحديث عن بني إسرائيل في حياة موسىٰ عليه السلام.

**والمعنىٰ**: وعبرنا ببني إسرائيل البحر، ونجيَّناهم من فرعون وقومه، ورأوا من آيات الله وعظيم سلطانه ما رأوا!!

ولكنَّهم حين مرُّوا علىٰ قوم يعبدون أصنامًا صنعوها، واتخذوها آلهة لهم: قال الجهلة فيهم ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ نعبده، ﴿كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعبدونها.

وهكذا ولفساد طبيعتهم، وانحراف فطرتهم: نسوا الله تعالىٰ سريعًا، وهنا ﴿قَالَ﴾ لهم موسىٰ ﴿إِنَّكُمْ﴾ بطلبكم هذا ﴿قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ عظمة الله تعالىٰ، وما يجب له من التنزيه عن الشريك.

ثم بيَّن لهم بطلان ما عليه عبدة الأصنام هؤلاء حيث قال:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾﴾

**يعني**: إن عبادة هؤلاء هالكة، وعملهم هذا باطل، فلا تكونوا مثلهم.

**ثم**: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

**يعني**: أغير الله تعالىٰ ﴿أَبْغِيكُمْ﴾ أطلب لكم، وهو سبحانه الذي ﴿فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من أهل مصر، وخلَّصكم من ذُلِّهم لكم، ونصركم عليهم؛ حيث أنجاكم وأغرقهم، فكيف أطلب لكم إلٰها غيره سبحانه وتعالىٰ؟ هذا طلب لا يليق منكم أبدًا، أنسيتم ما كان يحدث لكم؟

ولكن ماذا كان يحدث لهم؟ يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾

**يعني**: اذكروا حالكم ـ يا مَن تطلبون إلٰها غير الله تعبدونه ـ عندما نجَّيناكم ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ وهم يذيقونكم أشد ألوان العذاب، وأصعب أحواله، ومن صُوَرِه: أنهم كانوا ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي: الذكور منكم، ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ لخدمتهم، وإذلالكم.

﴿وَ﴾ إن ﴿فِي ذَٰلِكُمْ﴾ الإنجاء من الله، أو سوء العذاب ﴿بَلَآءٌ﴾ أي: اختبار ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾، أفلا تتعظون وتنتهون عمَّا قلتم؟

ثم يقصُّ الله تعالىٰ علينا ما أتمَّ به النعمة علىٰ موسىٰ عليه السلام وقومه بما حصل لهم من الهداية؛ بتكليمه موسىٰ عليه السلام، وإعطائه الألواح، وفيها أحكامهم، وتفاصيل شرعهم، وماذا فعلوه من انحرافهم الآخر الجديد، خلال غيبته عليه السلام عنهم؟، حيث يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

**يعني:** ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ﴾ أن يصوم ﴿ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ فصامها.

يقول ابن كثير رحمه الله: وأكثر المفسرين علىٰ أنها ليالي شهر ذي القعدة، وبعد أن صامها موسى عليه السلام: استاك لتذهب رائحة خلوف فمه، فأمره الله أن يصوم عشرًا أخرىٰ ﴿وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ وهي عشر ذي الحجة، فصامها، ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ أي: أمره به ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

**فعلىٰ هذا:** يكون تمام الميقات يوم النحر، وهو الذي حصل فيه التكليم لموسىٰ، وهو الذي كمل فيه الدين ـ كذلك ـ لمحمد ﷺ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وبعد تمام الميقات: استخلف موسىٰ عليه السلام أخاه هارون علىٰ بني إسرائيل، وأوصاه ـ من باب التذكير ـ بالإصلاح، وعدم الإفساد، وإلَّا فهارون عليه السلام نبي كريم، يصلح ولا يفسد. ثم يخبر ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ عن موسىٰ عليه السلام قائلًا:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

**يعني:** ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ أي: الوقت الذي حددناه، ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ بلا واسطة، ولا كيفية.

ولمَّا سمع موسىٰ عليه السلام كلام ربه تعالىٰ: طمع في رؤيته لغلبة شوقه؛ فسأل الرؤية ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي: مكِّنِّي من رؤيتك بأن تتجلىٰ لي حتىٰ أرىٰ ذاتك.

﴿قَالَ﴾ له ربه ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: بالعين الفانية، في هذه الدنيا الفانية، بل بعين باقية في الدار الباقية؛ حيث لم يقل له: «لن أُرىٰ» ليكون نفيًا لجواز الرؤية.

ولذلك: علَّق ربنا الرؤية باستقرار الجبل، وهو ممكن؛ حيث قال له: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ﴾ أي: بقي علىٰ حاله ﴿فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ﴾.

**ويلاحظ**: أن الله لم يعنف موسىٰ عليه السلام علىٰ هذا السؤال، بل لم يعاتبه.

ولذلك: نظر موسىٰ إلىٰ الجبل: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي: ظهر وبان ظهورًا بلا كيف ولا تشبيه ولا تمثيل، وخلق الله في الجبل حياة وعلمًا ورؤية، ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي: جعل الله الجبل مدكوكًا، مستويًا بالأرض، ﴿وَ﴾ هنا ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ أي: مغشيًّا عليه؛ لهول ما رأىٰ من النور.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ موسىٰ عليه السلام، من غشيته، ﴿قَالَ سُبۡحَٰنَكَ﴾ ربي من النقائص كلها، ومن أن تُرىٰ في الدنيا، ثم قال: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ ربي، من سؤالي رؤيتك في الدنيا، ثم قال: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بعظمتك وبجلالك، وبأنه لا يراك أحد من خلقك إلىٰ يوم القيامة.

**وهنا**: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

**يعني**: ﴿قَالَ﴾ الله تعالىٰ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ﴾ اخترتك ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ من أهل زمانك ﴿بِرِسَٰلَٰتِي﴾ أي: بما أوحيه إليك، لتبلِّغه عني ﴿وَبِكَلَٰمِي﴾ أي: بتكليمي إياك، ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ أي: أعطيتك من شرف النُّبوَّة والتكليم والرسالة والتوراة، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ علىٰ هذه النِعَم، ولا تطلب ما لا طاقة لك به في الدنيا، مثل الرؤية. ثم يخبر ربنا عز وجل قائلًا:

﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾

أي: ﴿وَكَتَبۡنَا﴾ كتب ربنا سبحانه وتعالىٰ لموسىٰ ﴿فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ﴾ وهي التوراة،

أو كانت قبل التوراة ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ ينتفعون بها، وكتب فيها كذلك ﴿تَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجونه في دينهم. ثم يأمر ربنا موسىٰ قائلًا: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذ ما في هذه الألواح من المواعظ، والتفصيلات بجد وعزم واجتهاد، ويأمره أيضًا قائلًا: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل، أن ﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بالأحسن فيها كالعفو، وهو الأحسن بدل القصاص وهو حسن، ثم قال عز وجل لموسىٰ وقومه ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: دار مَن ظلم، وفسق عن أمر ربه.

وفي هذا: وعد لهم أن ينزلهم منازل الظالمين، في بلاد الشام، وهو ـ في الوقت ذاته ـ تنبيه لهم أن لا يكونوا من الفاسقين، الخارجين عن طاعته.

وبعد هذا يبيِّن الله عز وجل سُنَّة من سننه وقاعدة من قواعده التي لا تتخلَّف، في أي عصر، وفي أية بيئة، حيث يقول عز وجل:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

**يعني**: سأمنع فهم آياتي والانتفاع بها عن عقول وقلوب المتكبِّرين عن طاعتي، والذين يتكبَّرون علىٰ الناس بغير حق.

ولذلك.. ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾..!! ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾!! ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾!! وما كل ذلك إلَّا بسبب أنَّهم ﴿كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ أي: كذبت قلوبهم بها ﴿وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ لا ينتفعون بها، ولا يعملون شيئًا مما فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾

**يعني**: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ وأنكروا ﴿لِقَاءِ الْآخِرَةِ﴾ واستمروا علىٰ ذلك إلىٰ مماتهم: ﴿حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ مهما كانت، وضاع ثوابها، ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا

﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ؟ أي: نحن نجازيهم بحسب أعمالهم التي عملوها، ونياتهم فيها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، وكما تدين تدان.

هذه القاعدة الربانية، التي قرأناها، فهي وإن كانت واردة في سياق الحديث عن بني إسرائيل، فهي أيضًا لهم ولنا، ولكل أمم الأرض إلىٰ يوم القيامة.

وبعد، فيخبر ربنا عز وجل عن ضلال من ضل من بني إسرائيل في عبادتهم العجل، فيقول جل شأنه:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

أي: بعد أن ذهب موسىٰ عليه السلام للقاء ربه في الطور اتخذ «السامري»، ورضي القوم عجلًا، صنعه لهم من الحلي التي استعارها من أهل مصر حين خروجهم منها، وجعله جسدًا ﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ أي: صوت كصوت البقر، بسبب مرور الهواء في جوفه، واتخذوه إلٰهًا لهم، وعبدوه.

وينكر الله عليهم كفرهم، وتفاهة عقولهم؛ حيث يقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ بل الصوت كالبقر فقط ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ لأنه جماد لا يعقل، فكيف يهدي؟!! بل كيف يفعلون ذلك أصلًا؟!!

وكيف يتخذون هذا إلٰهًا، ويتركون مَن خلَّصهم من فرعون وذُلِّه لهم، وأنجاهم من الغرق، وأغرق عدوهم أمام أعينهم، و.. إلخ.

حقًّا ﴿اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَٰلِمِينَ﴾ فيما فعلوه!!

ولمَّا رجع موسىٰ عليه السلام ـ كما سنبيِّن فيما بعد ـ وبيَّن خطأهم وعنفهم، وعرفوا أنهم أذنبوا!! يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

**يعني:** ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: عرفوا خطأهم ـ بعد عودة موسىٰ عليه السلام ـ ندموا ندمًا شديدًا، ﴿وَ﴾ لما ﴿رَأَوْا﴾ كذلك ﴿أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ بفعلهم هذا عن الصواب ـ وذلك ببيان موسىٰ لهم ـ !! ﴿قَالُوا﴾ مستغفرين ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ المغبونين في الدنيا والآخرة، بسبب ما فعلناه.

ثم يبيِّن ربنا ما فعله موسىٰ عليه السلام، بعد عودته من لقاء ربه، وقبل توبة هؤلاء الذين عبدوا العجل، فيقول عز وجل:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، من لقاء ربه، وكان الله عز وجل قد أعلمه بما فعل قومه؛ حيث قال له ـ كما في سورة طه ـ ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ﴾ [طه: ٨٥] عاد إليهم ﴿غَضْبَٰنَ﴾ من فعلهم ﴿أَسِفًا﴾ أي: أشد الغضب، ثم ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ أي: بئس ما صنعتم من عبادتكم العجل بعد أن تركتكم، وذهبت إلىٰ لقاء ربي ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ﴾ وسبقتم إلىٰ عبادة العجل قبل أن آتيكم بالتوراة؟ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ من غضبه عليهم، وتأسُّفه من فعلهم، والتفت إلىٰ أخيه غاضبًا كذلك:

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ﴾ في عتاب شديد، خوفًا من أن يكون قَصَّر في نهيهم عما فعلوا، قائلًا له ـ كما في سورة أخرىٰ ـ:

﴿... يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

وهنا: أجاب هارون عليه السلام، مستدرجًا عطف أخيه، قائلًا: ﴿ٱبْنَ أُمَّ﴾ أي: يا أخي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ وهذه طبيعة بني إسرائيل لا يحترمون الضعفاء، ولو كانوا علىٰ حق ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ فطبيعتهم الشماتة، وإيذاء الأنبياء، ثم قال له: ﴿وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا تخلطني بهم، ولا تعاملني معاملتهم.

ولمَّا اتضح لموسىٰ عليه السلام عذر أخيه:

﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾

أي: رب اغفر لي ما فرَط مني في حق أخي، واغفر لأخي إن كان قد فرَّط في حسن الخلافة ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ في عصمتك في الدنيا، وجنتك في الآخرة ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فلا راحم لنا ولا لغيرنا سواك، فارحمنا.

هذا ما كان من شأن موسىٰ عليه السلام وأخيه، وأما الذين اتخذوا العجل من بعد موسىٰ وندموا، فيقول عنهم رب العزة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

وهذا الغضب الإلٰهي الذي نال بني إسرائيل بسبب عبادة العجل: فهو أن الله تعالىٰ لم يقبل لهم توبة، إلَّا أن يقتل بعضهم بعضًا، كما في قوله تعالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

وأما الذلة في الحياة الدنيا: فهي بمزيد التغريب والتشتيت لهم، أو بمواقف الذلة في الأرض التي هم فيها، والتي يعانون منها إلىٰ يوم القيامة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الكاذبين علىٰ الله.

ثم ـ بعد هذا ـ ينبِّه ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ إلىٰ أنه يقبل توبة عباده من أي ذنب كان، فيقول عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

أي: كل مَن عمل سيئة، أيًّا كانت ـ ويدخل فيها سيئة عبادة العجل من بني إسرائيل ـ ثم تاب عنها ـ ويدخل فيها توبتهم بقتل بعضهم البعض ـ وآمن، أي: وحسن إيمانه، فإن ربك من بعد توبته وإيمانه ﴿لَغَفُورٌ﴾ لذنبه ﴿رَّحِيمٌ﴾ به، منعم عليه.

وأما بالنسبة لغضب موسىٰ عليه السلام فيقول رب العزة:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

**يعني**: ولمَّا سكن الغضب عن موسىٰ ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ التي كان قد ألقاها قبل ذلك من شدة الغضب؛ غيرة لله تعالىٰ، وغضبًا لدينه، ولمَّا أخذها ﴿وَ﴾ وجد ﴿فِى نُسْخَتِهَا﴾ أي: فيما كتب فيها ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ أي: يخشعون له، ويخضعون لأحكامه وتعاليمه. بعد ذلك يقول رب العزة:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَّ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

أي: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ من قَوْمِهِ ﴿سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ من أجل أن يعتذروا لربهم عن الذين عبدوا العجل، في موعد حدده الله تعالىٰ، فلما ذهبوا إلىٰ المكان المحدد في الموعد المحدد، قالوا لموسىٰ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] فأخذتهم الصاعقة؛ فماتوا جميعًا.

﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي: الصاعقة، أو الذلة، وماتوا ﴿قَالَ﴾ موسىٰ ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ﴾ حين عبدوا العجل، وليس الآن ﴿وَإِيَّىَّ﴾ لقتلي القبطي، ثم قال: يا رب ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا﴾ وهم الذين عبدوا العجل، يا رب ﴿إِنْ هِىَ﴾ أي: قضية العجل ﴿إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: اختبارك ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ فيسقط ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ حين لا يفتن ولا يضل، فالأمر أمرك، والحكم حكمك.

﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ القائم علىٰ أمورنا كلها، وليس لنا سواك، ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ ولا تؤاخذنا بذنوبنا، ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بعدم الوقوع في الذنوب مستقبلًا، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ لا يغفر الذنوب إلَّا أنت.

وبعد دعاء موسىٰ ربه بما يطلب النجاة منه دعا عليه السلام بما يحب أن يحصل عليه، حيث قال:

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾

**يعني**: حقِّق لنا في الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية، وفي الآخرة الجنة.

ثم علَّل هذا الطلب بقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾ أي: رجعنا إليك، وتبنا عن خطايانا.

عن علي رضي الله عنه قال: إنما سميت اليهود بهذا الاسم لأنهم قالوا: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ﴾.

يقول العلماء: وكان هذا الاسم، اسم مدح لهم قبل نسخ شريعتهم، وبعده صار اسم ذم، وهو لازم لهم.

ولكن ماذا قال الله تعالىٰ لموسىٰ بعد هذا الدعاء؟ ﴿قَالَ﴾ تعالىٰ: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ﴾ تعذيبه، ثم قال: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ﴾ أي: عمَّت ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ في الدنيا.

يقول المفسرون: ولمَّا نزل هذا الجزء من الآية، فرح إبليس وقال: أنا من ذلك الشيء،أي: الذي ستعمُّه رحمة الله!!

فأخرجه الله منها؛ وقال: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، ففرح اليهود وقالوا: نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا!! فأخرجهم الله منها، وأثبتها لمن يتبع محمدًا ﷺ.

حيث قال: مبيِّنًا لهؤلاء ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم﴾ بآيات ربهم يؤمنون:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

**يعني**: أكتب رحمتي لهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ﴾ اسمًا ووصفًا ﴿مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ دون مَن بقي علىٰ دينه ولم يؤمن به ويتبعه.

ومن أوصاف هذا النبي الموجودة في الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ كذلك: أنه ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما حُرِّم عليهم في شرعهم كلحوم الإبل، وشحم الغنم والمعز والبقر، ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ العهود الشديدة التي أخذت عليهم، مثل قتل النفس في التوبة، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في يوم السبت، وغير ذلك.

ثم يقول رب العزة: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بهذا النبي الأمي، الموصوف ـ في التوراة والإنجيل ـ بالصفات السابقة ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: وقَّروه واحترموه ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ علىٰ أعدائه ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ وهو القرآن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بكل خير ـ من أية أمة كانوا، أو في أي عصر وجدوا ـ والناجون من كل شر.

وبعد أن بيَّن ربنا ـ تبارك وتعالىٰ ـ ما في الكتابين ـ التوراة والإنجيل ـ من صفات محمد ﷺ، وبعد أن شرَّف مَن اتبعه، ووصفه بالفلاح، أمره ﷺ ببيان أن ذلك الشرف شامل لكل مَن اتبعه، وبدعوتهم للإيمان به واتباعه، فقال له:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد للناس جميعًا، أحمرهم وأسودهم، عربهم وعجمهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ بلا استثناء، هذا الإله ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾!! هذا الإله الذي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾!!

وما دام هذا الإله كذلك: فإنه سبحانه يأمرهم جميعًا بقوله: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

الذي جاء وصفه في الكتب السابقة بأنه ﴿ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ﴾ الذي يصدِّق قولَه عملُه، و﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾، ثم يقول رب العزة: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي: اسلكوا طريقه أيها الناس، والتزموا شريعته ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلىٰ الصراط المستقيم، والنعيم المقيم.

هذا وإذا كان اليهود هم أصحاب الكتاب الأول، وهم الذين بشَّر الله في كتابهم بهذا النبي الأمي: فهم مدعوون للإيمان به واتباعه.

ولذلك جاء الكلام عنهم مباشرة فيما يلي، حيث يقول رب العزة تبارك وتعالىٰ:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

**يعني**: أن بني إسرائيل ـ قوم موسىٰ ـ كانوا طائفتين: واحدة منهم ﴿أُمَّةٌ﴾ عندها استعداد للحق وقبوله واتباعه ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ في عقيدتهم وسلوكهم، ويهدون به غيرهم ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون، والطائفة الأخرىٰ: ليس عندها هذا الاستعداد، وهم الكثرة، وهم الذين انحرفوا، وكثر وطال انحرافهم.

ثم يحدِّثنا ربنا عز وجل عن بني إسرائيل قائلًا:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

**يعني**: وفرقنا بني إسرائيل إلىٰ اثنتي عشرة قبيلة وكل قبيلة أسباط، والأسباط: ولد الولد، ﴿أُمَمًا﴾ لأن كل سبط صار أمة كبيرة، وكل أمة كانت تتجه خلاف الأخرىٰ.

وحين طلب قوم موسىٰ منه أن يشربوا، وهم في الصحراء: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أوحينا إلىٰ موسىٰ ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ فلما ضرب الحجر بعصاه ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ أي: انفجرت من الحجر ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ

﴿عَيْنًا﴾ من ماء، وبهذا ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ أي: سبط ﴿مَّشْرَبَهُمْ﴾.

وكذلك وهم في هذه الصحراء القاحلة ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ﴾ أي: السحاب؛ ليقيهم حرارة الشمس، ﴿وَ﴾أيضاً ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو شيء حلو كان ينزل عليهم من السماء، مثل الثلج، من الفجر إلىٰ طلوع الشمس ﴿وَالسَّلْوَىٰ﴾ وهو طائر السمان.

وقلنا لهم: ﴿كُلُوا﴾ واشربوا ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ فكان الواحد منهم يأخذ ما يكفيه من هذا الطعام والشراب.

ومع ذلك: قابلوا هذه النِعَم بالكفران، وظلموا أنفسهم بالشرك، فعاد وباله عليهم، وما ظلمناهم في شيء ﴿وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

هؤلاء هم: بنو إسرائيل كانوا يرون آيات الله، ويتنعَّمون بها؛ ثم لا يشكرون الله عليها، بل يكفرون، فهل يستغرب منهم الكفر بالدين الجديد، ومحاربة أهله وأتباعه؟

وهذا الذي يقدَّم عنهم: حُجَّة عليهم، ودرس للمسلمين، حتىٰ لا ينخدعوا بهم، ويثقوا في وعودهم يومًا ما.

ثم يقول رب العزة لحبيبه ﷺ، ولكل عاقل كذلك:

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾

**يعني**: اذكر واعتبر، أو اذكر وذكِّر يهود اليوم بما فعله أسلافهم حين ﴿قِيلَ لَهُمُ﴾ من رب العزة، بعد خروجهم من التيه في الصحراء ﴿اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ وهي بيت المقدس ﴿وَكُلُوا مِنْهَا﴾ أي: من ثمارها ومطعوماتها ﴿حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ علىٰ راحتكم، ثم قلنا لهم: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: حُطَّ عنَّا يا ربنا خطايانا ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ أي: منحنين خاضعين خاشعين، فإن قلتم وفعلتم ذلك: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾ جميع ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ من جهة و﴿سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ منكم ثوابًا من جهة أخرىٰ.

ماذا قالوا؟ وماذا فعلوا؟ يقول رب العزة سبحانه وتعالىٰ:

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾

يعني: بدلًا من أن يشكروا الله تعالىٰ بطاعته، والاستجابة لأوامره ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ بالذي قيل لهم ﴿قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ حيث قالوا كلامًا لا معنى له، يغيظون به موسىٰ عليه السلام، وبدلوا الفعل أيضًا ـ كما سيأتي بيان ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بسبب مخالفاتهم هذه، وعدم طاعتهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الطاعون، وقد مات به منهم سبعون ألفًا في وقت واحد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾.

فهل نستغرب ـ بعد ذلك ـ رفض اليهود لدعوة الله؟ وهل ننتظر منهم ـ بعد هذا ـ وفاء للعهود؟ وهل نتعظ ـ بدورنا ـ ونبتعد عن ظلم أنفسنا بمعصية الله، ومخالفة أوامره، وإهمال تعاليمه؟ ثم يقول ربنا عز وجل لمحمد ﷺ:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

أي: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ﴾ واسأل يا محمد اليهود المعاصرين لك عن أسلافهم من أهل القرية، الذين ظلموا وبدلوا فعلًا غير ما أمر الله به.

هذه: ﴿ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ أي: قريبة منه أو علىٰ ساحله، وهي «أيلة» علىٰ خليج العقبة، وهي التي أحيا اليهود حاليًا اسمها مرة أخرىٰ، وسموها «إيلات»، وكان أهلها ﴿يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي: يتجاوزون حدَّ الله، ويخالفونه في يوم السبت، وذلك أنهم كانوا قد نُهوا عن العمل واصطياد السمك فيه، ولكنهم هتكوا حرمته، ﴿إِذْ﴾ كانت ﴿تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ﴾ الذي مُنعوا من العمل فيه؛ تعظيمًا له ﴿شُرَّعًا﴾ أي: ظاهرة واضحة، فيحبسونها لاصطيادها في غير السبت، ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي: في غير يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ هذه الأسماك، وهذا: ابتلاء وامتحان لهم من الله تظهر به طاعتهم لله أو مخالفتهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل هذا الابتلاء بموضوع السمك ﴿نَبْلُوهُم﴾ نختبرهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم ومخالفتهم أوامر ربهم، وتحايلهم على انتهاك محارم الله.

وبالنسبة لموضوع صيد السمك هذا، يُروى عن ابن عباس رضي الله عنه، أنه قال: انقسم أهل هذه القرية إلى ثلاث فرق:

**فرقة:** خالفت أمر الله، واحتالت في صيد السمك، وارتكبت المحظور.

**وفرقة:** نهت المخالفين عن هذا المنكر، واعتزلتهم.

**وفرقة:** سكتت فلم تفعل، ولم تنهَ.

ويخبر ربنا عز وجل عن هذه الفرقة التي سكتت أنها قالت لمن أنكروا ونهوا غيرهم عن المخالفة:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أي: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ﴾ قالت فرقة منهم، وهي التي سكتت، لمن نهت عن المنكر ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ بسبب مخالفتهم ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾ حيث لا ينفع الوعظ معهم؟

أجاب أهل الفرقة الصالحة، التي لم تسكت على المنكر، بل رفضته، ونهت عنه ﴿قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي: وعظناهم ليعذرنا الله، ولا نُنسب إلى التفريط في النهي عن المنكر، وأيضًا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله، ويستجيبون لنا.

ثم ماذا حدث لهم؟ يقول الله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟﴾ الذي خالفوا وتركوا ﴿مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ﴾ من وعظ الصالحين لهم كانت النتيجة: أننا ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ والذين قالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾ [الأعراف: ١٦٤] من العذاب ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وخالفوا، وارتكبوا

المنكر ﴿بِعَذَابٍۭ بَئِيسٍۭ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي: بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾

**يعني:** ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟﴾ أي: تكبَّروا وتمرَّدوا ﴿عَنْ﴾ ترك ﴿مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ كما أمرهم ربهم: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي: جعلناهم قردة ذليلين حقيرين، وهذا هو العذاب البئيس الذي ذكرته الآية السابقة.

وبعد ذلك: يأمر ربنا رسوله ﷺ أن يذكِّرهم بما هدَّدهم به سبحانه إن انحرفوا، فقال عز وجل:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾

**يعني:** ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ أي: قضى ﴿رَبُّكَ﴾ يا محمد ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لَيُسَلِّطَنَّ على اليهود ﴿مَن يَسُومُهُمْ﴾ يعني: يذيقهم ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ إذا عصوا وخالفوا أوامره.. وقد فعلوا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ﴾ لأهل طاعته ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم.

ثم يخبر ربنا عز وجل كيف أنه فرَّق اليهود في الأرض كلها، وجعلهم طوائف ممزعة.. حيث يقول سبحانه:

﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾

**يعني:** ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ﴾ أي: اليهود ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلها ﴿أُمَمًا﴾ أي: فرقًا، فلا يخلو بلد من فرقة من فرقهم.

﴿مِّنْهُمُ﴾ أي: من هذه الفرق ﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين اتبعوا موسىٰ عليه السلام، والتزموا بشرع الله، وبعد بعثة عيسىٰ عليه السلام: لا صالح منهم إلَّا مَن اتبعه، ثم بعد بعثة محمد ﷺ:

لا صالح منهم ـ أيضًا ـ إلَّا مَن اتبعه، ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من هذه الفرق ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير صالحين، وهم الفسقة.

﴿وَبَلَوْنَٰهُم﴾ أي: اليهود ﴿بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ بالرخاء والشدة، بالنعم والنقم، كسُنَّتِنا في كل أمة ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلىٰ الله بالطاعة، وينتهون عن المعصية. فهل رجعوا إلىٰ الله؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

يعني: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد هذا الجيل الذي عوقب بالتشتت ﴿خَلْفٌ﴾ أي: جيل سيء، لأن الخلَف بفتح اللام هو الجيل الصالح، وبسكونها هو السيء، ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التوراة عن أسلافهم، وعرفوا ما فيها، ولم يعملوا بها، حيث صاروا ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ أي: الحطام والدّنيء من متاع الدنيا ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: لن يؤاخذنا الله بما فعلنا دون أن يقلعوا عن ذلك، بدليل أنهم ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يعودون إلىٰ الخطأ دون إقلاع عنه، وعدم عود إليه.

هل يُنتظر من هؤلاء صلاح؟ ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم﴾ قبل ذلك ﴿مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: العهد المذكور في الكتاب، وفيه ﴿أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ وهم قد ﴿دَرَسُوا۟ مَا فِيهِ﴾ وعرفوا ميثاقهم، وما أُخذ عليهم؟ ومع ذلك: كانوا يخونون حكم الله، ويخالفون شرعه، من أجل الدنيا.

﴿وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ﴾ من ذلك العرض الخسيس الذي يخونون، ويخالفون بسببه ﴿لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الله بفعل ما أمر، والبُعد عمَّا نهىٰ عنه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيؤثرون الآخرة ويفضلونها علىٰ الدنيا؟ أو ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يا أمة محمد ﷺ، فتنتبهون لهم، ولا تأمنونهم، ولا تعاهدونهم؟

ثم أثنىٰ ربنا سبحانه، ومدح مَن تمسَّك بالحق واتبعه، حيث يقول جل شأنه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾

**يعني**: مَن تمسَّك بكتابه، الذي يقوده إلىٰ الحق، وإلى اتباع رسوله محمد ﷺ بما فيه من أوصاف له وبشارات به، وأقام الصلاة: فهذا هو المُصلِح الحقيقي، والمُحسِن الحقيقي، الذي لا يضيع أجره عندنا ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

لقد بيَّن الله تعالىٰ فيما سبق مخالفات اليهود وانحرافاتهم، بل تحريفاتهم لتعاليم ربهم!!

وكذلك: كيف أنَّ الله قضىٰ أن يبعث عليهم ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ [الأعراف: ١٦٧]؟

وكيف أنه قطعهم وفرقهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ [الأعراف: ١٦٨]؟

وكيف أنه خلف من بعدهم ﴿خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] أسوأ منهم..؟

وكيف أن الله بيَّن أن مَن يتمسَّك بكتابه، والعمل بتعاليمه ويقيم الصلاة هو من الصالحين، والله لا يُضيع المصلحين؟ ثم تأتي الآيات الكريمة التالية لتبيِّن لنا لونًا من معاناة موسىٰ عليه السلام معهم، وصورة من صور اعوجاجهم وعنادهم لآيات ربهم.

يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

هذه الآية الكريمة تحكي ردًّا علىٰ بني إسرائيل، حينما قالوا: لم يحدث منا مخالفات للحق.

**يعني**: واذكر يا محمد، أو يا كل إنسان وقت أن جاء موسىٰ عليه السلام لهم بالتوراة، وقرأها عليهم: فرفضوها، وامتنعوا عن العمل بها، فاقتلع الله الجبل، ورفعه حتىٰ صار ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ فوق رؤوسهم، ﴿وَظَنُّوٓا۟﴾ أي: تأكَّدوا ﴿أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي: ساقط عليهم لا محالة، وهنا: خروُّا ساجدين مرغمين، ثم قلنا لهم: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾ أي: التوراة، وما فيها من أحكام ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد ﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾ أي: اعملوا بما فيه من تعاليم وشرائع ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فلا تنحرفون.

ومع ذلك، ومع كل المواثيق والعهود: فقد انحرفوا، وما يزالون ينحرفون!!

وبهذا تنتهي قصة موسىٰ مع قومه بذكر أخذ الله تعالىٰ الميثاق منهم.

وتبدأ آيات السورة الكريمة أخذ الميثاق من البشرية كلها، بالعبودية لله رب العالمين، حيث يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

**يعني**: اذكر وقت أن ﴿أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ من ظهور بني آدم ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ حيث أخرج بعضهم من صلب بعض، حتىٰ يصل هذا الإخراج إلىٰ صلب آدم عليه السلام ونَصَبَ لهم دلائل ربوبيته، وركَّب عقولًا تميِّز الهدىٰ من الضلال بقدرته ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قائلًا لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ أنت ربنا وخالقنا، ولا رب لنا سواك.

وقد فعلنا ذلك من أخذ شهادة الأرواح هذه، حتىٰ لا ﴿تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ عند الحساب ﴿إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا﴾ التوحيد ﴿غَٰفِلِينَ﴾ لا نعرفه.

﴿أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

أي: ﴿أَوْ﴾ تحتجون بحجة أخرى علىٰ عدم التوحيد، بأن ﴿تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ﴾ فاقتدينا بهم، وسرنا علىٰ دربهم، فلا لوم علينا، ولا عقاب لنا.

﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؟ يعني: لولا أن الله عز وجل أخذ من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم علىٰ ربوبيته ووحدانيته: لقالوا هذا الكلام، وتعلَّلوا بهذه العلل الساقطة.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

أي: هذا التفصيل الذي نفصِّله، والتوضيح الذي نوضِّحه، والبيان الذي نقدِّمه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعل الذين كفروا يرجعون إلىٰ مقامهم الأصيل، وفطرتهم الحقيقية، وهي: العبودية لله رب العالمين.

والعبودية، تكون: باتباع وحي الله تعالىٰ، ورسله عليهم السلام.

وبعد هذا يأمر الله حبيبه ﷺ أن يتلو علىٰ الناس خبر الذي استحوذ عليه الشيطان، وابتعد عن تعاليم الرحمٰن، حيث يقول له:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

أي: ﴿وَٱتْلُ﴾ يا محمد، علىٰ اليهود، أو الدنيا كلها ﴿نَبَأَ﴾ خبر ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ التي تصلح شأنه، وتنفعه في الدنيا والآخرة، إذا اتبعها وعمل بها.

﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: ابتعد عنها، وكفر بها، ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ وصار قرينًا له يضله أكثر وأكثر، ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ الضالين الكافرين الخاسرين.

هـــذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لـــهـــذا ﴿ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعـــراف: ١٧٥] الهداية، لاهتدىٰ، ولم ينسلخ من آياتنا، ويكفر بها، و ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ علىٰ منازل الأبرار من العلماء، بسبب العمل ﴿بِهَا﴾ ونشرها في العالمين، ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ﴾ سبق في علمنا أنه ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مال إلىٰ الدنيا، ورغب فيها ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ في تفضيل الدنيا ولذتها علىٰ الآخرة ونعيمها.

وهـذا صـار مـثـلـه فـي ذلـك، ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ أي: يلهث إن تطرده أو تتركه، يعني: صار ذليلًا دائم الذلة وهوان النفس.

﴿ذَّٰلِكَ﴾ المثل ﴿مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ الكافرين ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

﴿فَٱقْصُصِ﴾ يا محمد، أو يا أيها الداعية، هذا ﴿ٱلْقَصَصَ﴾ وأمثاله مما فيه العظة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيحذرون مثل هذه النهاية السيئة، والصورة البغيضة.

حقًا: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾

**يعني:** ﴿سَآءَ﴾ المثل ﴿مَثَلًا﴾ مثل القَوْمِ ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ وضمُّوا إليه ظلم أنفسهم؛ حيث أوردوها موارد التهلكة. والذي ينبغي أن يُعرف جيدًا أنه:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾

**يعني:** لا هداية إلَّا من الله، ومَن هداه الله: فهو الناجي الفائز، ومَن أضلَّه الله: فهو الهالك الخاسر، فاطلبوا الهداية دائمًا منه سبحانه وتعالىٰ.

ثم يخبر ربنا عز وجل أنه خلق لجهنم ـ أعاذنا الله وإياكم منها ـ خلقًا، هم لها وهي لهم، وهذه صفاتهم:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

يقول تعالىٰ جلَّت حكمته: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا﴾ أي: خلقنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾ وهم الكفار من الجن والإنس، الذين علم الله تعالىٰ ـ في الأزل ـ منهم اختيار الكفر علىٰ الإيمان؛ فشاء لهم الكفر، وجعل مصيرهم ـ بسبب اختيارهم ـ جهنم.

هؤلاء من أوصافهم أنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يعقلون بها الحق، ولا يتفكَّرون فيها، فيؤمنون، ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ آيات الله، ويتفكرون فيها فيؤمنون، ﴿وَلَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ خلقها الله لينتفعوا بها، ولكنهم ﴿لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ الوعظ فيعقلونه، و ينتفعون به فيؤمنون.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ في عدم الفقه والتعقُّل، والنظر للاعتبار، والاستماع للتدبر والاتعاظ، ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام؛ لأنهم كابروا وعاندوا، ولم يعرفوا ما يضرهم؛ حيث اختاروا النار، والأنعام تطلب منافعها، وتهرب عن مضارها.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ الحقيقيون، والخاسرون الحقيقيون.

ولكن يجب علينا ألَّا نكون من هؤلاء الغافلين عن آيات الله، فيذكرنا الله تعالىٰ بما يلي قائلًا:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾

يعني: ﴿وَلِلَّهِ﴾ تعالىٰ ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي هي أحسن الأسماء، ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ أنتم يا مسلمون، وسمُّوه ﴿بِهَا﴾ واستعملوها في ندائه، وفي دعائه، وغير ذلك.

﴿وَذَرُوا۟﴾ أي: اتركوا ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يكذِّبون ويغيِّرون في ﴿أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

هؤلاء الذين يكفرون، أو يكذِّبون، أو يلحدون في أسمائه ﴿سَيُجْزَوْنَ﴾ في الآخرة ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذا: تهديد لكل مَن يكفر بالله تعالىٰ، ويُلحد في أسمائه.

وإذا كان الله تعالىٰ قد خلق لجهنم أهلها ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]: فقد خلق تبارك وتعالىٰ للجنة ـ كذلك ـ أهلها حيث يقول:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

يعني: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ﴾ ﴿أُمَّةٌ﴾ في كل عصر ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يهتدون، فيعملون به، ويَدْعون الناس إليه، لا يسكتون عن دعوتهم، ولا يتخلون عنها، ولا يتقوقعون علىٰ أنفسهم، ولكنهم يهدون به غيرهم، من الضالين عن هذا الحق، المتنكرين له، المعادين للعمل به،وكذلك هم ﴿وَبِهِۦ﴾ أي: بهذا الحق ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس إذا حكموا.

وهذا الحق الذي يهدون إليه، ويحكمون به: هو ما أنزله الله، هو آياته في كتابه، وسنة رسوله ﷺ.

وفي مقابل هؤلاء الذين ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ يوجد المكذبون بآيات الله، الذين يقول عنهم المولىٰ ﷻ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾

**يعني**: هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ سنفتح لهم أبواب الرزق، والمناصب، والمكاسب، و﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ بها، حتىٰ يغتروا، ويعتقدوا أنهم علىٰ شيء، دون أن يعلموا أننا سنضربهم الضربة القاضية ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ما يُراد بهم.

وكذلك: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، قبل إهلاكهم ـ فيما هم فيه من النعيم، أو الضلال ـ ثم أكيد بهم وأهلكهم ﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ بهم، وأخذي لهم، حين يكون ﴿مَتِينٌ﴾ قوي، لا نجاة لهم منه، ولا رحمة لهم فيه.

وما دام الأمر كذلك والعذاب الشديد ينتظر المكذبين، فلم لم يتفكَّروا في وضع المنقِذ لهم من هذا المصير الأليم، وهو محمد ﷺ؟!!

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

أي: لِمَ لَمْ يتفكر هؤلاء المكذبون، ويستعملوا عقولهم؟!! إنهم لو تفكروا في أمر مَن يدعوهم إلىٰ الإيمان: لعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِهِم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿مِّن جِنَّةٍ﴾ يعني ليس مجنونًا، كما يدَّعي بعضهم.

ولو تفكَّروا لعلِموا يقينًا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لهم من عذاب الله ﴿مُّبِينٌ﴾ واضح في دعوته، قوي صادق في حجته ﷺ.

**أيضًا**: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

**يعني**: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟﴾ أو لم ينظر هؤلاء المكذبون نظر استدلال واعتبار، في هذا الملكوت العظيم ﴿مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ لا يُحصىٰ ولا يعد؟

خاصة: وأنه ربما ﴿قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ وحانت نهايتهم.

فليبادروا إذن إلىٰ التفكُّر والاعتبار، ومن ثم الإيمان وإلَّا ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ﴾ أي: القرآن، أو الاعتبار الصحيح بخلق الأكوان ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يهدهم ذلك إلىٰ الإيمان؟!!

ومن العجب: أن يبقىٰ الإنسان ـ مع وضوح القرآن، ووضوح دعوة محمد ﷺ، ووضوح آيات الله في الكون ـ أن يبقىٰ كافرًا.

**ولذلك:** ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾

أي: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ﴾ من أي أحد.

﴿وَ﴾ الله ﴿يَذَرُهُمْ﴾ يتركهم؛ لاختيارهم الضلال ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾ كفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يتحيَّرون، لا يستريحون، ولا يهتدون.

ومن الضلال ـ ومن الطغيان: أن يتركوا التفكير فيما ينبغي، وأن يتركوا العمل بما ينبغي، ويسألون عن أشياء، لا تقدِّم معرفتها ولا تؤخِّر، مثل سؤالهم عن ميعاد يوم القيامة، يقول الله تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: اليهود، أو كفار قريش، أو مَن يضل ضلالهم ﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ يوم القيامة ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ﴾ متىٰ تكون، ويرسيها الله؟

﴿قُلْ﴾ هذا **أولًا:** ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ﴾ لم يخبر أحدًا، لا مَلِك مقرَّب، ولا نبي مُرسَل. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاءها إلَّا هو سبحانه وتعالىٰ.

ومع أنها ﴿ثَقُلَتْ ۚ﴾ أهوالها وشدائدها علىٰ العقلاء ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ حتىٰ يستعدُّون لها بالعمل الصالح: فإنها ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ﴾ أي: فجأة.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ أي: اليهود، أو كفار قريش، أو مَن يضل ضلالهم ﴿كَأَنَّكَ حَفِىٌّ ۚ﴾ مبالغ في السؤال ﴿عَنْهَا﴾ حتىٰ علمت وقتها.

﴿قُلْ﴾ **ثانيًا:** ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾ لم يخبر به أحدًا، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

ثم قال ربنا عز وجل لمحمد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ

﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

أي: ﴿قُل﴾ **ثالثًا** يا محمد:

أنا عبد ضعيف ﴿لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ لي من النفع والضر.

﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي: المستقبل ﴿لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾ شأني شأن كل الناس في هذا.

وما ﴿أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ فقط ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ولا صلة لهذا، ولا لذاك بعلم الغيب.

وهكذا لفت الله عز وجل أنظار المشركين إلىٰ التفكُّر في وضع رسول الله ﷺ في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ [الأعراف: ١٨٤]؟ ثم أعطاهم دليلًا من خلال إعلانات محمد ﷺ عن نفسه بما يدل علىٰ أنه رسول الله إليهم، وإلىٰ الدنيا كلها.

وكما لفت الله عز وجل أنظارهم إلىٰ التفكُّر في ملكوت السمٰوات والأرض ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ ليكون دليلًا يوصلهم إلىٰ التوحيد، يلفت نظرهم ـ كذلك ـ إلىٰ ما يوصلهم إلىٰ التوحيد، حيث يقول:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

**يعني:** ﴿هُوَ﴾ الله ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم عليه السلام ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا﴾ أي: من نفس آدم ﴿زَوْجَهَا﴾ أي: حواء ﴿لِيَسْكُنَ﴾ يطمئن ويميل ويشتاق ﴿إِلَيْهَا﴾.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ آدم، أي: جامعها، ﴿حَمَلَتْ﴾ منه ﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ شأن كل حمل في أول أمره، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ الأيام، وهو ـ أي: الحمل ـ يكبر في بطنها شيئًا فشيئًا.

﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ به، أي: ثقل حملها، وقرب ميعاد وضعه: ﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: دعا آدم وحواء ربهما قائلين: يا ربنا ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولدًا ﴿صَٰلِحًا﴾ سويًّا سليمًا في بدنه وعقله ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك نحن وهو، ومَن يتناسل من ذرياتنا.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّآ﴾ استجاب الله دعاءهما، و ﴿ءَاتَىٰهُمَا﴾ ولدًا ﴿صَٰلِحًا﴾ كما طلبا: ﴿جَعَلَا﴾ أي: الرجل والمرأة من ذرية آدم وحواء ﴿لَهُۥ﴾ أي: لله ﴿شُرَكَآءَ﴾ أي: شريكًا ﴿فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ أي: فيما آتىٰ وأعطىٰ أولادهما.

وللعلم: الذي جعل الشركاء لله هم ذرية آدم وحواء، وأما آدم عليه السلام وحواء: فهما بريئان من هذا الشرك تمامًا.

وعلىٰ كُلٍّ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ وتنزَّه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾

أي: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ مع الله الخالق ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ ولا يستطيعه ﴿وَهُمْ﴾ في الوقت ذاته ﴿يُخْلَقُونَ﴾ أي: مخلوقون.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾

**يعني**: كما أن هذه الآلهة المزعومة ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لمن جعلوهم آلهة، وأشركوهم مع الله، ﴿وَلَآ﴾ حتىٰ ﴿أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ فيدفعون عنها ما يحدث لها من كسر أو غيره!!

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

أي: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ﴾ وتطلبوا منهم خيرًا، أو ترشدونهم ﴿إِلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ كما تطلبون من الله تعالىٰ ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ إلىٰ مرادكم، ولا يجيبوكم في تحقيق ما تطلبون.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ أي: فدعوتكم لهم، وسؤالكم لهم، وعدم دعوتكم وعدم سؤالكم سواء في أنه لا فلاح معهم.

وما ذلك إلَّا بسبب أنهم مخلوقون مثلكم، لا يملكون شيئًا، يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ﴾ هؤلاء الشركاء ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وتسمُّونهم آلهة ﴿عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ مخلوقون لا يملكون لكم ولا لأنفسهم شيئًا.

وإلَّا ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ لجلب نفع لكم، أو لدفع ضر عنكم ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ إذْن في جلب النفع، أو دفع الضر ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمكم أنهم آلهة؛ وتشركونها مع الله!!

ثم يا أيها الناس، أيُعقَل أن يكون هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: عباد أمثالكم، وهي أصنام لا تعقل؟ أيعقل أن يكون هؤلاء آلهة؟

﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾

يعني: ﴿أَلَهُمْ﴾ ألهؤلاء الشركاء ﴿أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ﴾ مثلكم؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ﴾ يتناولون بها الأشياء؟

﴿أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ﴾ يرون بها؟

﴿أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ﴾ مثل آذانكم ﴿يَسْمَعُونَ بِهَا﴾؟

لا، ليس لهم هذا ولا ذلك، من الأعضاء الأربعة، ومنافعها، فَلِمَ تعبدوا هذه الأشياء إذن؟ وما داموا مُصِرِّين علىٰ عبادتهم: ﴿قُلِ﴾ لهم يا محمد ﴿ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ﴾ واستعينوا بهم، في عداوتكم لي وهلاكي ﴿ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: ابذلوا كل جهودكم في الكيد لي، أنتم وهم، ﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: ولا تعطوني مهلة في هذه الحرب؛ حتىٰ لا أستعد لها. فإني بالرغم من ذلك كله لا أبالي بكم، ولا أهتم لأمركم.

حيث: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾

نعم: ﴿إِنَّ وَلِيِّىَ ٱللَّهُ﴾ فهو ناصري عليكم، وهو الله ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾

عليّ وأعزني به، وشرَّفني برسالته، ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فينصرهم علىٰ أعدائهم ، ولا يخذلهم.

أما الذين تدعون أنتم من دونه، فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ فهم عجزة مثلكم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ﴾ علينا ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ علىٰ مَن يعتدي عليهم.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾

**يعني:** ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ﴾ لا يستجيبون لهداية؛ لأنه لا عقل عندهم، ولا حياة فيهم، ﴿وَتَرَىٰهُمْ﴾ وأنت تنظر إليهم، كأنهم ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ﴾ في حقيقة الأمر ﴿لَا يُبْصِرُونَ﴾ شيئًا.

وبعد هذا النقاش مع المشركين!!، وبعد إقامة الأدلة علىٰ ضلالهم!!

يأمر الله تعالىٰ حبيبه محمدًا ﷺ بأربعة أشياء، هي له ولأمته، في قوله عز وجل:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

**فالأول:** ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: اجعل العفو صفتك، حيث إنه لمَّا نزلت هذه الآية، قال ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟**» قال: «**إن الله يأمرك أن تعفو عمَّن ظلمك، وتعطي مَن حرمك، وتصل مَن قطعك**».

**والثاني:** ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف والجميل من الأفعال والأقوال، التي يرتضيها العقل، ويقبلها الشرع.

**والثالث:** ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي: لا تقابلهم بمثل سفههم، وهي كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

يقول جعفر الصادق رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية.

**والرابع:** ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي: ينخسك بوسوسته ﴿فَٱسْتَعِذْ

﴿بِٱللَّهِۚ﴾ منه، أي: فالجأ إلىٰ الله، واستجر به بذكر الاستعاذة، ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وتعالىٰ ﴿سَمِيعٌ﴾ يسمع وسوسة الشيطان، ويسمع استعاذتك منه ﴿عَلِيمٌ﴾ بما فيه صلاح أمرك، يفعله كرمًا منه لك، وعطفًا عليك.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

حيث: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ ربهم ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: شيء، كوسوسة بفعل المعاصي أو ترك الطاعات ﴿تَذَكَّرُوا۟﴾ الله تعالىٰ ومراقبته، فخافوه واتقوه، وتذكَّروا عقابه علىٰ فعل المعاصي، وضياع ثوابه بسبب ترك الطاعات ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ الحق، فاعلون له، راشدون به.

وذلك بالرغم من العوائق التي تحول بينهم وبين النجاح في تنفيذ ذلك، والتي يشير إليها قوله تعالىٰ:

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] هؤلاء ناجون، بالرغم من أن إِخْوَانَهُمْ، وزملاءهم وأصدقاءهم السوء، من شياطين الإنس والجن ﴿يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ يشجعونهم في الانحراف والفساد، وما فيه ضررهم وهلاكهم، ويستمرون علىٰ ذلك التشجيع لهم ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ فيه، ولا يسكتون عنه.

ثم يبيِّن ربنا عز وجل أنه بينما المتقون علىٰ بصيرة من نور الله، فإن المشركين في عماهم يقترحون علىٰ محمد ﷺ أن يأتي لهم بالآيات الدالة علىٰ صدقه؛ استهزاء منهم. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّىٓۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾

أي: هم يقترحون عليك يا محمد أن تأتي لهم بالآيات، ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ﴾ كما يطلبون، يقولون لك: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ أي: لولا اختلقتها من نفسك، كما فعلت بما قبلها، مثل القرآن الذي جئت به من عند نفسك.

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي﴾ لا أقترح عليه، ولا آتي بشيء من عندي، فأنا متبع لوحي ربي ملتزم به، ولست مبتدعًا لشيء مما جئت به.

وقل لهم أيضًا: ﴿هَٰذَا﴾ القرآن ﴿بَصَآئِرُ﴾ وآيات ﴿مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ به، فينتفعون. فهلَّا آمنتم، وانتفعتم؟!!

ولمَّا ذكر ربنا سبحانه أن القرآن بصائر للناس، وهدى، ورحمة، أمر بالاستماع له، والإنصات عند تلاوته؛ إعظامًا له، واحترامًا، فقال لمحمد ﷺ: قل لهم وللدنيا كلها:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

**يعني**: يجب عليكم، ولمصلحتكم ﴿إِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟﴾ أن تستمعوا له استماع تدبُّر وتعقُّل، وأن تنصتوا في خشوع وتواضع، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وفي الحديث قوله ﷺ: «**من استمع إلىٰ آية من كتاب الله: كتبت له حسنة مضاعفة، ومن تلاها: كانت له نورًا يوم القيامة**».

ثم يأمر المولى تبارك وتعالىٰ رسوله ﷺ، والمؤمنين أن يذكروا الله تعالىٰ، وذلك في قوله:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾

أي: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أيها المؤمن بكل ما تستطيعه من الأذكار، مثل: قراءة القرآن، والدعاء، والتسبيح، والتهليل، سرًّا، علىٰ أن يكون هذا الذكر ﴿تَضَرُّعًا﴾ تذلُّلًا لله تعالىٰ ﴿وَخِيفَةً﴾ منه ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ لأن الإخفاء أقرب إلىٰ الإخلاص، وحُسن التفكر ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ أوائل النهار وآخره، وداوم ع

لىٰ ذلك ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ اللاهين عن ذكر الله ومراقبته. **حيث**:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾

يعني: إذا كان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولا

يترفَّعون، ولا يمتنعون، ولا يتكاسلون ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ قلبياً، كالتسبيح ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ أي: ينزِّهونه عما يليق به، وبدنيًا، كالسجود له ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي: يخصُّونه بالخضوع والخشوع والتذلُّل والعبادة. فكيف بكم أنتم؟

يعني: فكونوا مثلهم لا تستكبروا عن عبادة الله، وسبِّحوه، ونزِّهوه، وعظِّموه، واخضعوا له.

وهذه أول سجدة في القرآن، وهي: من السجدات، التي يُشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع.

وقد ورد في حديث عن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن النبي ﷺ عدَّها في سجدات القرآن. [رواه: ابن ماجه].

فإذا قرأها المؤمن أو سمعها: سجد لله تعالىٰ، ويقول في سجوده: ما يقول في سجود الصلاة، أو يقول: «**اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود**». [رواه: الترمذي كتاب الجمعة، باب ما يقول في سجود القرآن، وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة، باب سجود القرآن].

* * *